

ديوان الشافعي

ديوان الشافعي

شرحه وقدم له: يوسف سامي اليوسف

الطبعة الأولى عام ٢٠٠٣ عدد النسخ ١٠٠٠

حقوق الطبع محفوظة

طباعة وتنفيذ: مؤسسة علاء الدين للطباعة والتوزيع

تنضيد وإخراج: فادي الكاتب

تصميم الغلاف: فيصل حفيان

يطلب الكتاب على العنوان التالي:

مؤسسة علاء الدين للطباعة والتوزيع

سورية، دمشق، ص:ب: ٣٠٥٩٨

هاتف: ٥٦١٧٠٧١ - فاكس: ٥٦١٣٢٤١

ديوان الشافعي

الشرح والتقديم

يوسف سامي اليوسف

obeykandi.com

المقدمة

بقلم : يوسف سامي اليوسف

عندما انتصف القرن الثاني الهجري، توفي الإمام أبو حنيفة النعمان، وهو من أسس أول مذهب فقهي في الإسلام، ولقد كانت وفاته في بغداد، وفي أحد سجون الخليفة المنصور. ولكن، في تلك السنة نفسها (١٥٠ هـ = ٧٦٧ م) ولد في غزة، أو ربما في عسقلان التي هي إلى الشمال من غزة، وكنيتهما على الساحل الجنوبي لبلاد فلسطين، ولد طفل من قريش اسمه محمد بن إدريس الشافعي، وهو من سوف يُقَيِّضُ له أن يؤسس مذهباً فقهياً واسع الانتشار في العالم الإسلامي كله.

ويبدو أن إدريس بن العباس، والد الشافعي، كان قد جاء إلى غزة في عمل له، وهناك أدركته المنية، فترك زوجته وطفله يحاصرهما فقر عضوض. فما كان من المرأة إلا أن أخذت ابنها ورحلت إلى مكة، بلد زوجها، وأسلمت الطفل لأقربائه بغية إعالته والاعتناء به. وهناك أدخل إلى الكتّاب ليتعلم القراءة والكتابة. وبعدما أنهى فترة التعليم الأولي هذه، رحل الشافعي إلى البادية حيث عاش مدة طويلة مع قبيله هذيل، يرحل إذا رحلت ويقيم إذا أقامت. ويبدو أن تلك المدة قد كانت طويلة حتى لقد جعلها بعض رواة الأخبار سبع عشرة سنة، والأرجح أنها دون ذلك بكثير. ولكن الرجل حين عاد إلى مكة كان قد أتقن اللغة العربية أيما إتقان، لأن هذيل أفصح العرب يومذاك.

وقضياً عن اللغة العربية عاد الشافعي وهو يحفظ الشعر الهذلي كله عن ظهر قلب، بل ربما عاد وقد أصبح شديد الدراية بشعر العرب، أو لعله صار شاعراً منذ ذلك الحين، وبفضل اتصاله بهذيل المشهورة بشعرها الكثير.

وفي مكة لازم الحرم والفقهاء والخبراء بشؤون الدين، وراح يتتلمذ عليهم ويتعلم منهم، فقد كان مغرمًا بالمعرفة، ولهذا فإنه يمجّد العلم كثيراً في أشعاره. وقد أتيح له أن يقرأ كتاب (الموطأ) للإمام مالك بن أنس، بل استطاع أن يحفظه برمته عن ظهر قلب. وظل في مكة حتى قيص له من يده على الإمام مالك نفسه في المدينة المنورة. ومن المعلوم أن ذلك الإمام هو مؤسس المذهب الفقهي الثاني بعد أبي حنيفة النعمان الذي أسس المذهب الأول.

ولكن الشافعي غادر المدينة المنورة بعد أن أقام فيها مدة طويلة، وسافر إلى العراق، ولا سيما إلى الكوفة وبغداد، حيث التقى بتلاميذ أبي حنيفة وأخذ عنهم الكثير. وتفيد بعض المصادر بأنه راح يطوف في الآفاق بعد ذلك، فزار مدينة الرملة الفلسطينية وأقام فيها برهة من الزمن، كما زار العديد من الأقطار والأمصار. ولقد انعكس هذا الترحال في شعره على نحو جلي. ولكنه عاد إلى المدينة المنورة ليتتلمذ من جديد على مالك بن أنس الذي ظل الشافعي يلازمه حتى توفي سنة ٧٩٥م.

وبعد وفاة مالك سافر الشافعي إلى اليمن ليعمل كاتباً لدى واليها، وتزوج وأنجب ابناً وبنتين. وفي اليمن اتهم الإمام بأنه يدبر انتفاضة ضد العباسيين، فاستدعاه الرشيد إلى بغداد، ولكنه أطلق سراحه بعدما ثبتت براءته، أو ربما بعد أن تأكّد الخليفة من أنه ليس بالخطير. وعرض عليه أمير المؤمنين مبلغاً من المال، فقبل بأن الإمام قد رفض العرض، وقيل بل أخذ المال وانصرف.

وأقام في بغداد يعلم بعض التلاميذ الفقه هذه المرة، وكان الإمام أحمد بن حنبل واحداً من أبرز تلاميذه في عاصمة بني العباس التي كانت عاصمة الدنيا يومذاك. ومن المعلوم أن ابن حنبل هو مؤسس المذهب الفقهي الرابع، أو الأخير.

وظل الشافعي في تلك المدينة حتى قتل الأمين بعد فتنة كالحة دامية هوجاء، وذلك سنة ١٩٨ هـ، أو في الخامس من أيلول عام ٨١٣م. وربما كانت الفتنة

هي السبب الذي جعل الإمام يغادر العراق إلى مصر سنة ٨١٤ م، حيث أقام خمس سنوات. وفي الفسطاط، عاصمة مصر يومذاك، لازم الشافعي مسجد عمرو بن العاص، وأخذ الناس يتحلقون حوله ويتعلمون منه ويستفتونه ويأخذون حقائق الدين. وهناك ألف أبرز كتاب بين كتبه كلها، وهو كتاب (الأم) الذي يندرج فيه جوهر مذهب الشافعي.

وفي سنة ٢٠٤ هـ = ٨١٩ م، توفي الإمام الشافعي في الفسطاط، وله من العمر ثنتان وخمسون سنة شمسية، وهناك من قال بأنه عاش أكثر من ذلك ببضع سنوات. ولا زال قبره معروفاً في مصر حتى يوم الناس هذا.

أما شعره فلم يجمع في ديوان خاص أثناء حياته، بل قيل إن معظمه منحول، ألصقه به بعض الناس بعد وفاته. وفي ظني أن هذا القول لا يستند إلى أي أساس رصين، إذ الصواب عندي أن بعض قصائده منحوله وبعضها الآخر من إنتاجه الخاص، فمن غير المستهجن أن ينتج الشافعي شعراً جيداً بعدما تربى في هذيل المشهورة بفصاحتها وشعرها.

وفي حدود علمي أن ديوانه لم يجمع إلا في القرن العشرين. ولكن أهم ما في الأمر أن دور النشر شديدة الاعتناء بجمع ديوان الشافعي وإصداره في هذه الأيام، أو خلال السنوات العشر الأخيرة. وربما جاز الزعم بأن اعتناء الجيل الراهن بشعر هذا الشاعر أشد من اعتنائه بشعر المتبني الذي قيل فيه إنه صناجة العرب.



كان الشعر العربي قد طرأت عليه تغيرات جوهرية عندما بدأ الشافعي بممارسة هذا الفن في أواخر القرن الثامن الميلادي، وذلك بسبب التغيرات الاجتماعية والتاريخية التي حتمها ذلك العصر نفسه. ولعل أول تغيير يتصل بالجانب الاجتماعي في تلك الآونة أن يكون تمركز الشعر في المدن بدلاً من البوادي التي كان ينتشر فيها خلال العصر الأموي وما سبقه من عصور. ومما هو بدهي أن يختلف شعر المدن عن شعر البوادي من عدة جهات، إذ لقد تلاشى الكثير من عناصر القصيدة الجاهلية والأموية، ولا سيما الوقوف على الأطلال ووصف الناقة، وجميع موجودات الصحراء تقريباً. كما أن الألفاظ البدوية الخشنة لم يعد لها حضور كثيف في القصيدة الجديدة، اللهم إلا أن يكون ذلك على ندره وحسب. وبذلك صار الأسلوب الشعري سلساً إلى حد بعيد، بحيث يتناسب مع أذن الإنسان الحضري الفارق في الترف المادي الذي توفره المدن للطبقة السائدة، التي هي الطبقة الأشد اهتماماً بالشعر في تلك الأزمان.

كما أن ثمة عاملاً آخر هو اتصال العرب بثقافات جديدة لم يكن لهم اتصال بها من قبل، ولعل الثقافة الفارسية والثقافة اليونانية أن تكونا أهم ثقافتين اتصل بهما العرب في الطور الأول من أطوار الدولة العباسية. وربما جاز الذهاب إلى أن المدن، ولا سيما بغداد، كانت بوتقة تنصهر فيها العناصر البشرية ذات الثقافات المتباينة، الأمر الذي أثار عميق الأثر في الثقافة العربية جملة، وضمنها الشعر.

وأياً ما كان جوهر الأمر، فإن الشاعر في ذلك الجيل العباسي الأول، وهو جيل الشافعي أو زمنه، قد راح يميل إلى التصوير الفني، وكذلك إلى الاهتمام بالشكل والقضايا الأسلوبية، على نحو لم يعرف من قبل إلا لماماً فقط. ولا ريب في أن رائد هذا التيار وفارسه الأكبر هو أبو نواس الذي يكبر الشافعي بعشر سنوات، والذي سوف يصبح أنموذجاً يقتدي به أبو تمام، وهو من ينبغي أن يعد بحق والد الحداثة في العصر العباسي الأول. فلا ريب في أن أسلوب أبي تمام، الذي

يحاول أن يستنفر المحال، فينجح تارة ويخفق أخرى، هو الأساس الصخري الصلد الذي بني عليه أسلوب المتنبّي، أو ذروة الشعر العربي التراثي كله.

وكان هنالك شاعر آخر أسهم أيما إسهام في إنجاز الأسلوب الجديد، وهو مسلم بن الوليد، الذي لقبه الرشيد بصريع الغواني، وذلك لأنه وصف نفسه بقوله: ((صريع الغواني راقهنّ ورقنه)). ولقد كان مسلم هذا من جيل أبي نواس تماماً، أي من الجيل الذي يكبر الإمام الشافعي بقليل. ولقد ذكر بعض الرواة عن أبي تمام أنه كان يتخذ من ديوان النواصي وديوان مسلم صنمين شبيههما باللات والعزى، وأنه يعكف على التعبد لهما كما يعكف الوثنيون على أوثانهم.

وخلاصة الأمر أن حركة الشعر التراثي في تلك الآونة قد عمدت إلى تطوير أسلوبين متميزين، فضلاً عن أساليب أخرى تتوسط بينهما. أما أولهما، وأكثرهما حداثة، فهو ذلك الأسلوب الذي يُعلي قيمة البديع، أو قيمة السمات الشكلية والتصويرية. وفي صلب الحق أن بشار بن برد قد كان أول من بدأ هذا الأسلوب المتأثر بأسلوب القرآن الكريم على نحو لا يخفى. وربما جاز الظن بأن ذا الرمة قد مهد لبشار هذا الدرب الذي أدى إلى نقلة نوعية مع أبي تمام. ولكن ذا الرمة وابن برد معاً قد ظلا يجنحان إلى اللفظة الحوشية الجافية والأسلوب الجاهلي الصحراوي الخشن، مما يخولك حق الذهاب إلى أن جهدهما في مضمير التصوير الفني لم يكن سوى المقدمة التي مهدت لسواهما، أي للجيل الذي جاء بعدهما إثر بناء بغداد سنة ١٤٤ هـ = ٧٦٢ م.

وأما ثاني الأسلوبين فهو البسيط أو المباشر والخالي من كل زخرف، أو حتى من كل ميل إلى التفنن، إذ إنه قل أن يأخذ التصوير الفني في الحسبان لأنه يهتم بالمحتوى دون أن يهتم بالشكل. وقد استحدث هذا الأسلوب شاعر من الكوفة اسمه إسماعيل بن القاسم، المشهور بأبي العتاهية. وأبو العتاهية هذا أكبر من الشافعي بعشرين سنة على وجه التقريب.

وربما شاركه في هذا الاستحداث شاعر آخر هو صالح بن عبد القدوس الذي صلبه المهدي سنة ٧٧٧م، أو زهاء ذلك. وبهذا الاتجاه الذي يفضل الكلمة القريبة أو المتداولة، سار الشافعي بعد أبي العتاهية، كما سار شعراء آخرون، بل إن ذلك الأسلوب المباشر والخالي من الصنعة وغريب الألفاظ، قد ظل محوراً في حركة الشعر العربي منذ أبي العتاهية وحتى يوم الناس هذا.

لا يخفى على قارئ ديوان الشافعي الكثير الطبقات في هذه الأيام، أن أسلوبه هو الأبسط بين جميع الأساليب الشعرية التي أنجزها الشعراء في النصف الثاني من القرن الثاني الهجري. بيد أن شعره لا يستند من حيث القيمة إلى جودة الأسلوب أو قوة الخيال، بل إلى زخم الحساسية التي أراها ينبوع الأول للشعر العظيم، وكذلك إلى صدق التجربة ومكابدة الحياة وهمومها المنهكة. إن خبرة الإمام بالحياة وبالناس هي ما يضفي النكهة والحيوية على شعره ويجعله صالحاً للقراءة حتى في زمننا الراهن الذي نقل الشعر نقلة لم تألفها الأزمنة السالفة على الإطلاق.

ففي الحق أن هذا الشاعر يشكو مرّاً الشكوى من الناس ومن الزمن الفاسد، أي من المجتمع المتكسر للقيم الإنسانية، فتراه كثيراً ما يصرّح بأن العزلة هي السبيل الوحيد لاجتئاب أذى الناس. وربما كان الشافعي أول شاعر يذكر الوحدة والعزلة في شعره على نحو جهري:

ليت الكلاب لنا كانت مجاورة
ولييتنا لا نرى ممن نرى أحدا
فاهرب بنفسك، واستأنس بوحدها
تبقى سعيداً إذا ما كنت منفرداً

ولئن كان الإمام هو قائل هذين البيتين حقاً فإنه بتفضيله للكلاب على البشر يشبه شوبنهاور، الفيلسوف الألماني الذي فضل قطته على أي إنسان.

ومما هو جدير بالملاحظة أن الإمام كثيراً ما يشير إلى موضوع الوحدة أو العزلة في شعره، مما يدل على أن الغربة الاجتماعية قد ترسخت في تلك الأونة بسبب تضخم المدن. ومما يحتاج إلى التنويه به في هذا السياق أن المعري سوف يتخذ من موضوع الوحدة أو العزلة محوراً كبيراً من محاور شعره، بل إنه سوف يعتزل الناس اعتزلاً إجرائياً. وحبذا الإشارة إلى أن المعري يكتب بأسلوبين بينهما فرق شاسع البون. أما أولهما فهو مصطنع ويجنح إلى اللفظية، أو إلى الكلمات الوعرة الغريبة، وهذه هي المثلبة الأولى وربما الوحيدة في شعر المعري. وأما الثاني فهو البسيط السهل المباشر العاري من الصنعة، أو من البديع، والجانح إلى الكلمة المألوفة المتداولة بين الناس في الحياة اليومية. وهذا الأسلوب الأخير يتأسس على المبدأ الذي يحكم شعر أبي العتاهية والإمام الشافعي وسواهما من الشعراء الميالين إلى البساطة في اللغة، واجتناب الغلو في الشكل، والبلوغ إلى فؤاد السامع، أو إلى ذهنه، على نحو مباشر أو فوري.

ويتضجر الشافعي كثيراً من الأيام والدهر والناس وسوء الأخلاق في مجتمعه، وهذه موضوعة سوف يشاركه فيها المتنبّي وسواه. ولكن الشافعي كان معتدلاً في شكواه، أما المتنبّي فسوف يتطرف كثيراً. ولعل في الميسور الذهاب إلى أن الإمام هو من ألهم أبا تمام وابن الرومي والمتنبّي والمعري ذلك الميل إلى ذم الدهر أو العصر، أي ذم المجتمع. بجملة بنيته، بل ذم الدنيا والنظر إليها بوصفها جيفة وحسب. يقول الشافعي:

لم يبق في الناس إلا المكر والملق

شوك إذا لمسوا، زهر إذا رمقوا

فإن دعتك ضرورات لعشرتهم

فكن جحيماً لعل الشوك يحترق

إن هذه الصورة الفنية البسيطة القريبة التي تجعل الناس زهوراً إذا ما عرضوا على البصر، وأشواكاً إذا ما صاروا برسم اللمس، تتطوي ضمناً على دعوة إلى ترسيخ المسافة بين الأنا والآخرين، أي هي تضمير الميل إلى الوحدة أو إلى الاعتزال، وتتطوي كذلك على الاغتراب، أو على نفور الروح من الحياة في المدن الكبرى التي لا تمارس على الإنسان سوى النفي والتقوقع في داخل جلده الخاص. فالمدن الكبرى دوماً منحطة شائخة، ولكنها تسربلها على الدوام أناقة أو وسامة مصطنعة، بل لحائية لا شأن لها سوى إخفاء ما يستتر تحتها من بؤس وشقاء.

ولقد عبر الإمام عن هذا الاغتراب المريع بقوله:

تتكرت البلاد ومن عليها
كأن أناسها ليسوا بناس

وهذا مما يذكر بقول امرئ القيس في رأيته المشهورة:

لقد أنكرتني بعلبك وأهلها
ولابن جريج في قرى حمص أنكرا

أن تتكرك لك البلاد ومن فيها من بشر، حتى لكأن الناس ما عادوا بشراً، فهذا شعور بالغربة قاضم فاتك مرير.

ويقول في الزمان:

محن الزمان كثيرة لا تتقضي
وسروره يأتيك كالأعياد
ملك الأكابر فاسترق رقابهم
وتراه رقاً في يد الأوغاد

ويقول في الموضوع نفسه:

نعيب زماننا والعيب فينا
وما لزماننا عيب سوانا
وليس الذئب يأكل لحم ذئب
ويأكل بعضنا بعضاً عيانا

فليس الزمان شيئاً سوى الناس الذين يعيشون فيه ، ولئن فسد الزمان فهذا يعني أن البشر هم الذي فسدوا. أما البيت الأخير ففيه إشارة واضحة إلى مقولة (الإنسان ذئب الإنسان) التي ذكرها الشاعر اللاتيني بلاوتس في مسرحية له عنوانها (الحمير).

وأما الدنيا فهذه هي صورتها في عين الإمام الخبير بشؤون الحياة:

وما هي إلا جيفة مستحيلة
عليها كلاب همهن اجتذابها
فطوبى لنفس أولعت قعر دارها
مغلّقة الأبواب، مرخى حجابها

لا أدري ما إذا كان الشافعي قد استعار هذا المعنى من المتصوفة أم أن المتصوفة قد استعاروه من الشافعي. ففي الحق أنه المبدأ الأول للتصوف الزاهد، إذ لقد اعتاد أهل هذا الصنف من أصناف الصوفية أن يقولوا: (الدنيا جيفة وطلابها كلاب)، وذلك هو ما يقوله المقبوس الأخير بوضوح.

ولعل في الميسور أن أجزم بأن الإمام الشافعي متأثر بأبي العتاهية في هذا كله. وعندي أن أبا العتاهية شاعر قل نظيره في تاريخ الشعر بأسره. فهو يحشد مفارقة لا يحشدها سواه: لغة لحائية وموضوعات لبائية، أو أسلوب مباشر بسيط وموضوع يتمركز في سويداء قلب الحياة. ولا ريب في أن قدرته على تزويد قصائده بشيء من التلحين الداخلي أن تكون عاملاً من أهم العوامل التي جعلت شعره مقبولاً عند متذوقي الشعر. وهذه سمة لا تتوفر لشعر الإمام الشافعي بتاتاً. والأهم من ذلك كله أنه اتخذ من الموت موضوعة محورية لشعره، فكان بحق أول شاعر وجودي في تاريخ الأدب العربي بأسره.

ولئن كان أبو العتاهية يسير على نهج فحواه توظيف الكلمة المتداولة التي يفهمها عامة الناس، فإنه، مع ذلك، يختار ألفاظاً ناعمة لينة ذات جرس موسيقي، ولها وقع في النفس المتلقية، بل إن لها شيئاً من الفتون أحياناً، ولا سيما حين يتغزل بالنساء، إذ لا ريب في أنه شاعر بالطبع أو بالجوهر. أما الشافعي فليس له إلا اليسير من هذه السمات الفنيّة. وهذا مما يدفع المرء إلى القول بأنه شاعر بالعرض وحسب. ولا يضعه بين الشعراء سوى قدرته على استتار بعض من جوانب الحياة، أو من التجربة البشرية، ولا سيما العلاقة مع الآخر. والجدير بالذكر أن الأقدمين قد أدركوا أن شعر العلماء هو دوماً إنجاز متواضع، أو لعله أن يكون شعراً من الدرجة الثانية.

ويبدو أن الشافعي نفسه قد أدرك ما فحواه أن شعره لا يرقى إلى مستوى شعر الفحول، وربما كان قد استهدف التنويه بهذه الحقيقة حين قال:

ولولا الشعر بالعلماء يزري

لكنت اليوم أشعر من لبيد

فربما كانت هذه إشارة منه إلى أنه ليس واحداً من شعراء الدرجة الأولى، أمثال لبيد العامري أو سواه. ومما يدعو إلى التساؤل، بل إلى الدهشة، أن تكون للشعر هذه الجاذبية القوية، بل هذه السلطة التي تحتم على الكثير من البشر في كل زمان ومكان أن يعانون قول الشعر. فالشاعفي الشديد الاهتمام بفقته الدين، كان عليه أن يكرس شطراً من جهده لهذا الفن الذي من شأنه أن يجتذب بعض الناس، بينما ينقرّ بعضهم الآخر.

فهل من مفكر كبير يملك أن يكشف لنا عن سر هذه السلطة الأمرة المستبدة التي يتسلط بها الشعر على بعض النفوس؟ بل هل من مفكر يملك أن يبين لنا لماذا رافق الشعر الإنسان طوال التاريخ؟ أليس مما هو صادق تماماً أن الشعر برهة جوهرية أو عنصر تركيبى في طبع الموجود الروحي، أو في بنية ماهيته الدائمة؟ فهل هنالك من يملك القدرة الكافية على أن يبين حقيقة هذا الأمر الذي من شأنه أن يحث الذهن البشري على التساؤل والاستفسار.

لعل السمة الأبرز بين السمات الشخصية التي يتمتع بها الإمام الشاعفي أن تكون التزامه بمكارم الأخلاق، أو حصراً بالشهامة التي هي النقيض المباشر للخسة أو للندالة. وفي صلب الحق أن أخلاق الرفعة هي مبدأ الشاعر طوال حياته. وهذا ما ييسر للقارئ أن يستخلصه من ديوانه حصراً، كما قد ييسر له أن يلاحظ التزام الإمام بالطيبة وعزة النفس على نحو ناصع ومتواتر. ولا بأس في هذا المقبوس الذي يبين حقيقة هذه السمة الذاتية أو الشخصية.

ولو أنني أسعى لنفعي وجدتي

كثير التواني للذي أنا طالبه

ولكنني أسعى لأنفع صاحبي

وعار على الشبعان إن جاع صاحبه

فمما هو جلي ههنا أن الرجل شههم حتى آخر حدود الشهامة. ولكن ثمة مفارقة في هذا المقام. إذ لقد تبدى الشافعي سابقاً وكأنه يكابد العلاقة مع الآخر، أو ربما مع الناس أجمعين. ولكنه يتبدى في هذا الموضع وكأنه يضحى بنفسه في سبيل الآخر، أو التزاماً بمبدأ الإيثار واجتتاب الأثرة والأنانية. ومع ذلك، فإنني لا يساورني أدنى ريب بصدقه في الحالين. فالآخر متعب، من جهة، ولكنه لا غنى عنه بتاتاً، من جهة أخرى، إذ لا يملك الإنسان أن يصير إنساناً، بأي حال من الأحوال، إلا إذا عاش بين الآخرين. ولئن جاز القول بأن الإنسان يفترس الإنسان، فلا يجوز، في الوقت نفسه، إلا الذهاب إلى أن الإنسان ينتج الإنسان أيضاً.

ثم إن لك أن تلاحظ ميل الشاعر إلى المحبة في هذا المقبوس الصغير الذي قاله وهو في مرض الموت:

سأصبر للحمام، وقد أتاني
وإلا فهو آت بعد حين
وإن أسلم يمت قبلي حبيب
وموت أحبتي قبلي يسوني

يا له من شعور نبيل هذا الشعور الذي يندرج في البيت الثاني من المقبوس الأخير. فالشاعر يفضل ألا يتأجل أجله، لأنه إذا نجا من المرض الراهن، فإن واحداً من أحبته قد يموت قبله، وهذا حادث سوف يسوؤه كثيراً جداً، أو يحزن روحه على نحو فاجع مرير.

وها هو ذا يقول في موضع آخر:

يا لهف نفسي على مال أفرقه
على المقلين من أهل المروءات
إن اعتذاري إلى من جاء يسألني
ما ليس عندي لمن جنس المصيبات

أرأيت إلى هذه الشهامة التي يزعجها أن تشاهد أهل المروءة يطلبون منه مالا فلا يستطيع أن يلبي لهم طلبا لأنه فقير؟ أرأيت إليه وهو ينظر إلى اعتذاره لهم بوصفه صنفا من أصناف المصائب؟ إن عجزه عن التلبية أو الإغاثة هو أمر مقيت عنده. فلکم هو نبيل هذا الإمام الطيب الملتزم بمبدأ الخير، بل بالناموس الأخلاقي كله. فمما يندعن كل ريب أن الإنسان لا يصير إنسانا إلا بقدر ما يحوز من مكارم الأخلاق، ولا سيما الطيبة التي هي خلاصة الفضائل بأسرها.

ومما لا بد له من أن يكون ناصعا لكل من قرأ ديوان الشافعي أن شطرا كبيرا من شعره يتمحور حول موضوعة الصلة بالآخر، أو العلاقة بالناس، سواء أكانت علاقة سلبية أم إيجابية، علاقة ترى الإنسان جحيما أو روحا تستحق التكریم. بيد أن شطرا آخر من شعر الشافعي يتمحور حول صورته التي رسمها لداخله حصرا. فمما ينبغي التأكيد عليه أن الشافعي شديد الاعتداد بنفسه دون أن يكون متكبرا أو خارجا عن المناقب الحميدة. إنه يكرم نفسه ويعتد بكرامته الشخصية، ولعله أن لا يأبى شيئا قدر ما يأبى الذل والهوان. فها هو ذا يقول:

همتي همة الملوک ونفسي

نفس حر ترى المذلة كفرا

إنه الالتزام بالشرف وبمبدأ الحرية التي يقدمها الشاعر من حيث هي ضد الذلة والخنوع أمام كل ما يسلب الكرامة. أن يصير الذل في نظر الشاعر كفرا قد يفضي إلى جهنم، ذاك هو منتهى الالتزام بمبدأ الحرية بوصفها العنصر المركزي أو الينبوعي في الماهية البشرية أو الروحية.

ولكي لا يذل أو يصير رقاً في أيدي الأوغاد، فقد توجب عليه أن يلتزم بمبدأ القناعة. ولهذا السبب الأخلاقي حصراً، كانت مقولة القناعة واحدة من الموضوعات الكبرى التي تؤلف قوام شعره. فها هو ذا يقول:

غني بلا مال عن الناس كلهم

وليس الغنى إلا عن الشيء لا به

ويقول:

وإذا ما قنعتُ بالقوت عمري

فلماذا أزور زيـداً وعمرا

هكذا تحتم المرءة أن تقنع بما لديك لكي لا تضع نفسك تحت سيطرة اللئام. وهذه، دون ريب، برهة في الأخلاق الفردية التي مجدها الناس في كل زمان ومكان. فمما هو شديد النصوع أن شعر الإمام لا محتوى له سوى الأخلاق الحميدة وحدها والمنافحة دونها وذم أصدادها وكل ما يسلبها. فالشاعر شديد الاعتناء بالقيمة الروحية للفرد، ويفضل هذه المزية كانت لشعره قيمة أدبية كبيرة، وراح الناس يهتمون به ويقرأونه كثيراً، مع أنه لا يتمتع بسورة الخيال والتصوير التي يتمتع بها شعر الفحول من الشعراء. ففي ميسور المرء أن يزعم بأن الحساسية، أو قدرة الذات على تلمس التجربة واستشعارها، هي التي صنعت المزية لشعر الإمام الشافعي، وليس أي عنصر داخلي آخر. وهذا يعني أن روح الرجل حساس إزاء كل ما يغرب الإنسان، أو يشيؤ شخصيته ويحيلها إلى هلام.

ناصر، إذن، أن الإمام الشافعي قد تمكن من ترسيخ بعض القيم الإنسانية في شعره الصغير الحجم والعظيم المقدار. وربما كانت معاملة الآخر بإحسان واحدة من أبرز هذه القيم اللطيفة أو النبيلة. يقول:

لما عفوت ولم أحقد على أحد

أرحت نفسي من هم العداوات

إنني أحيي عدوي عند رؤيته
لأدفع الشر عني بالتحيات

ويقول في موضع آخر:

وليس كثيرا ألف خل لعاقل
وإن عدوا واحدا لكثير

كما يقول أيضا:

يخاطبني السفيه بكل قبح
فأكره أن أكون له مجيبا
يزيد سفاهة فأزيد حلما
كعود زاده الإحراق طيبا

إنها أخلاق الإنسان الحليم الكريم، الذي ينأى بنفسه عن مجابهة الشر
بالشر، بل يلتزم بمبدأ الرفعة، أو حتى بمبدأ السكينة أمام السفاهة والخطأ،
وذلك ابتغاء اجتناب المهاترات وإضاعة الجهد في السباب والشجار.

ولا يخفى على أحد أن هذا القول جد بسيط حتى ليشبه النصائح التي توجه
للأطفال، ولكن تطبيقه الإجرائي أو التنفيذ يحتاج إلى قامة باذخة شاهقة،
إذ لا يطبق ذلك إلا من كان حليما بالطبع لا بالعرض.

ثم إن حب الإمام للمعرفة، وهي التي يسميها العلم، جريا على عادة
الأقدمين، هو موضوع بارز في شعره. فلا ريب في أن الإمام قد سلخ عمره
في السعي وراء المعرفة، ولا سيما معرفة الدين. ولهذا السبب لا بد للمعرفة

من أن تكون قيمة جُلَى في نظر رجل هذه هي حاله ، وهذا هو همه الذي يستهلك
طاقته أو معظمها. يقول:

العلم من فضله لمن خدمه
أن يجعل الناس كلهم خدمه

ويقول كذلك في موضع آخر:

مع العلم فاسلك حيثما سلك العلم
وعنه فسائل كل من عنده فهم

وكانت عادة الأقدمين أن يسافر المتعلم طلباً للمعرفة، وأن يتصل بالمشاهير
من أهل العلم أينما كانوا. بل إن من تقاليد الناس في الأزمنة الغابرة ألا يعدّوا
الرجل الذي لم يرحل في طلب المعرفة عالماً كبيراً. فالقعود عن ذلك في نظرهم
مثلبة كبيرة لا تقبل التسويغ. ومما هو ناصع في ديوان الشافعي أنه كان يحب
السفر حباً جماً، وأنه قد سافر كثيراً بالفعل. وها هو ذا يحثك على السفر لتتجو
بنفسك من التخشب أو من التأسن:

ما في المقام لذي عقل وذي أدب
من راحة، فدع الأوطان واغترب
إني رأيت وقوف الماء يفسده
إن ساح طاب، وإن لم يجز لم يطب

ويقول في موضع آخر:

تغرب عن الأوطان في طلب العلا

وسافر ففي الأسفار خمس فوائد

تفرج همّ واكتساب معيشة

وعلم وآداب وصحبة ماجد

ومما هو بدهي أن هذا القول لا يخرج إلا من روح إنسان مارس السفر وعرفه حق المعرفة. والأهم من ذلك أنه أحبه كثيراً، فراح ينصح الناس بالسفر أو بالترحال، وذلك لما يتمخض عنه من فوائد جلييلة المقدار. ولعل العبارة الأخيرة في البيت الثاني من المقبوس الأخير، أقصد (صحبة ماجد) أن تلفت الانتباه ولو قليلاً. فهذه الصحبة هي فائدة من فوائد السفر. وهذا يعني أنه يضع الصداقة، أو العلاقة مع الآخر، في سلم القيم الإنسانية الكبرى. ولقد أحسن صنفاً حين فعل ذلك، إذ لا ريب في أن الإنسان منسوج من العلاقة. وما الاغتراب إلا لأن المرء يخفق في تأسيس اتصاله بالعالم أو بالآخرين.

وبذلك يتضح لك أن رفض الشافعي للناس، وكذلك لجوئه إلى الوحدة أو إلى العزلة، ليسا من صميم شخصيته، وإنما هما عرضان حتمتهما طبيعة تجربته الخاصة التي لا بد لها من أن تفرز شيئاً من العدواة والخصام. فهو يؤسس مذهباً دينياً، وكل من أسس مذهباً، أكان دينياً أم غير ديني، لا بد له من أن يتعرض للمشاكسة والمنافسة. وفضلاً عن ذلك، فإن المدن الكبرى التي عاش فيها الشافعي رديحاً من الزمن، من شأنها أن تنتج بشراً أنانيين لا يعنون كثيراً بغير مصالحهم المادية. وهذه واقعة تسهم أيما إسهام في إنتاج الاغتراب.

وأياً ما كان جوهر الشأن، فإن المرء لا يسعه إلا أن يجزم بأن الشافعي شديد

الطبية، ولا يكنّ للناس إلا كل مودة وإخاء.

ليس من اليسير أن تكشف الدراسات الأدبية عن الآثار التي تركها الأسلاف على شعر الإمام الشافعي، كما أنه ليس من اليسير كذلك أن تكشف عن تأثير الشافعي في الشعراء الذين جاؤوا بعده. ولئن حاول المرء أن يفعل ذلك، فإنه يحتاج إلى مجلد قائم بذاته. وذلك يعني أن هذه المقدمة لا تتسع لهذا الإنجاز الشاسع المنداح.

من المؤكد أن عدداً كبيراً من الشعراء اللاحقين قد تأثروا بالشافعي إلى هذا الحد أو ذلك، ولكن أبا الطيب المتبني كان الأكثر استفادة من شعر الإمام. والغريب أن الدارسين والمنقبين الذين نقبوا في (سرققات المتبني)، وهي ما نسميه اليوم بالتناسخ، لم يفتنوا أي منهم للشافعي بوصفه مصدراً من مصادر أبي الطيب. فلم يتبته الحاتمي لهذا الأمر، كما لم يتبته له ابن وكيع ولا صاحب ابن عباد. والأهم من ذلك كله أن القاضي الجرجاني الذي وضع في القرن الرابع الهجري، أو العاشر الميلادي، أحسن كتاب عن الشاعر العملاق، وهو (الوساطة بين المتبني وخصومه)، قد فاتته تأثر أبي الطيب بالشافعي، مع أنه قد كرس نصف الكتاب (لسرققات) ذلك الشاعر.

أما كتاب (الصبح المنبئ عن حقيقة المتبني) للشيخ يوسف البديعي الدمشقي الذي عاش في القرن الحادي عشر الهجري، أو السابع عشر الميلادي، فقد جاء ليكون بمثابة تلخيص لجميع الكتب التي خصصها السابقون للبحث في شؤون المتبني. ولو أنك تصفحت هذا الكتاب لوجدت معظم (سرققات المتبني) معروضة فيه على نحو مفصل، ولكنك لن تجد أيما ذكر لتأثير الشافعي في المتبني، مع أن بين الشعارين تشابهاً لا يخفى البتة على كل من قرأ أشعار الرجلين كليهما بشيء من الأناة. ولعل السبب في ذلك أن ديوان الشافعي لم يكن قد جمع طوال الأحقاب التراثية كلها، ولا سيما في القرن الرابع الهجري يوم احتدمت المعركة النقدية حول أبي الطيب. فلقد كان شعر الشافعي منثوراً في بطون الكتب هنا وهناك. ومما هو معلوم جيداً أن أبا الطيب قد كان قارئاً منهموماً وخبيراً بالكتب الأدبية وغير الأدبية.

وفي صلب الحق أنه ما من شاعر كبير بحجم المتبّي إلا وجدوره ضاربة في موروث أمته، فضلاً عن موروث الأمم الأخرى. ومن المحال أن يكون الأمر خلاف ذلك، إذ ما من كاتب إلا وهو ينبع من ينابيع لا تحصى، تماماً كالنهر الكبير الذي لا يتضخم إلا لكثرة ما يرفده من روافد. وهذا يعني أن التأثير حتم أو قدر لا بد منه، وأنه ليس عيباً، بل شرف، إذا ما التزم المرء بقواعد الشرف. وتتضي هذه القواعد بالأخذ المتأثر المحتوى كما هو تماماً، بل عليه أن يغيره ويفنيه، فيفعل كما تفعل النحلة التي تحيل الرحيق إلى عسل، أو كما يفعل القمر الذي يجعل نور الشمس نوراً من صنف آخر. فلئن أخذ المعنى كما هو سميناً ذلك سرقة، ولئن أعاد خلقه أو إنتاجه سميناً تناصاً.

ولا مرأ في أن المتبّي الذي صدر عن ألف مصدر ومصدر، قد استطاع بالفعل أن يخلق هويته الخاصة، أو صباغه الذي يلونه بلون ليس لسواه. وههنا بالضبط يكمن شرفه العظيم، إذ ما من شاعر ذي شأن سوى ذلك الذي يتمتع بهوية تخصه وحده دون سائر الناس.

ولئن حاولت أن تتقرى ما أخذه المتبّي من الشافعي بطريقة مباشرة، أي على هيئة سرقة وليس على هيئة تناص، لوجدته قليلاً جداً، بل لعله أن يكون أقل من الطفيف. ولكن لا بأس في تثبيت هذه المادة الضئيلة من الناحية الكمية. يقول الإمام:

ومن الدليل على القضاء وحكمه

بؤس اللبيب وطيب عيش الأحمق

ويقول أبو الطيب:

ذو العقل يشقى في النعيم بعقله

وأخو الجهالة في الشقاوة ينعم

ولعل مما هو شديد النصوع أن بين البيتين تشابهاً لا يخفى على أحد. ولكن
بيت أبي الطيب أقوى وأجود بكل تأكيد.

ويقول الشافعي:

قد مات قوم وما ماتت مكارمهم
وعاش قوم وهم في الناس أموات

أما المتبني فيقول:

ليس من مات فاستراح بميت
إنما الميت ميت الأحياء

ناصر أن ثمة تقارباً بين البيتين لا يخفى حتى على تلاميذ المدارس.

ويقول الشافعي:

كيف الوصول إلى سعاد ودونها
قلل الجبال ودونهن حتوف

ولكن المتبني يقول:

أما الأحبة فالبيداء دونهم
يا ليت دونك بيداً دونها بيد

ومع أن التشابه واضح في هذا الموضع، فإن ثمة مسافة تفصل بين الاثنين،
وإن تكن قصيرة. ويقول الإمام:

ستسترجع الأيام ما وهبتكم
ومن عادة الأيام تسترجع القرضا

فيقول أبو الطيب:

أبدأ تسترد ما تهب الدنيا
فيا ليت جودها كان بخلا

ومما هو ليس بخاف قط أن الشطر الأول من بيت المتنبي مأخوذ
من (أو مشترك مع) بيت الشافعي بكل نصوص.

وأخيراً، يقول الإمام:

وأحسن إلى الأحرار تملك رقابهم
فخير تجارات الكرام اكتسابها

ويقول المتنبي:

إذا أنت أكرمت الكريم ملكته
وإن أنت أكرمت اللئيم تمردا

ومما هو جلي أن أبا الطيب لم يأخذ من سالفه سوى الشطر الأول من هذا البيت الأخير، أما الشطر الثاني فقد استولده من سليقته الخاصة، وإن كان من طبيعة هذا الشطر الأول أن يوحى بالشطر الثاني.

وأياً ما كان جوهر الأمر، فإن ما أخذه المتبني في هذه المواضع الطفيفة ليس بالسرقعة الخالصة، لأنها لا تخلو من جهد يبذل ابتغاء إعادة الصياغة التي قد تقضي إلى الإثراء والترصين. ولكن أهم ما في الأمر أن أبيات المتبني، وهو الشاعر الفحل المطبوع، أقوى بكثير من أبيات الشافعي ذات الأسلوب الساذج الخالي من كل نزعة شكلية تقريباً. وإن لك أن تتأمل هذين البيتين لكي تتأكد من صحة هذا القول:

ومن الدليل على القضاء وحكمه
بؤس اللبيب وطيب عيش الأحمق
ذو العقل يشقى في النعيم بعقله
وأخو الجهالة في الشقاوة ينعم

فمما لا يخفى على اللبيب أن البيت الثاني مسبوك سبكاً لا يبذره أي سبك، فجاء تجسيداً للجزالة والرصانة ورسوخ البنيان. وهذه سمة لا تتوفر لبيت الشافعي الراهن.

لئن كان التأثر المباشر أو الفوري هو وحده المقصود حينما يقال بأن المتبني قد تأثر بالشافعي، فإن الأبيات القليلة الأنفة الذكر هي كل ما يربط بين الشعارين. ولكن ما هو أهم من ذلك بكثير يتلخص في أن ثمة عنصراً مشتركاً بين مناخي الرجلين. وعندني أن النقد الموازن، أو نقد التناص، ينبغي أن ينصب على اكتشاف التشابه القائم بين المناخات، بل إن كل دراسة جديرة بالاحترام هي تلك التي تدرس المناخ، أو ما هو نصف جهري ونصف سري. أما النقد الموضوعي فلا ينم

إلا عن ضيق أفق، أو عن ذهن لا تزيد مساحته عن مساحة سم الخياط. ففي صلب الحق أن التأثير الجوهرى هو الاشتراك ببعض السمات الماهوية، أو أقله بعنصر من العناصر التي تؤلف الهوية نفسها.

ولا بد من توضيح هذا المذهب بمثال أو بمثالين.

يقول الشافعي:

عندي يواقيت القريض ودره
وعليّ إكليل الكلام وتاجه

ويقول أيضاً:

ولولا الشعر بالعلماء يزري
لكنت اليوم أشعر من لبيد

أما أبو الطيب فيقول:

أنا الذي نظر الأعمى إلى أدبي
وأسمعت كلماتي من به صمم

ويقول في موضع آخر:

وما الدهر إلا من رواة قصائدي
إذا قلت شعراً أصبح الدهر منشداً

ومما قد لا يخفى على المتأني أن المناخين متقاربان أو متشابهان، هذا إن لم يكونا مناخا واحدا، حتى وإن لم يكن المتنبى قد استمد هذه البرهنة من الشافعي حصرا. ففي الحالين يعتد كل من الرجلين بشعره أو بموهبته الشعرية. ولكن ما يستحق التأكيد في هذا المقام هو أن بيتي المتنبى أقوى من بيتي الشافعي دون أدنى ريب.

وإذا ما تقررت الديوانين جيدا، أعني ديوان الإمام وديوان أبي الطيب، فإنك ستجد المتنبى يشبه سلفه كثيرا من حيث الاعتداد بالنفس. وهذا أمر مشهور عن أبي الطيب الشديد التطرف في النرجسية. فربما أقنعتك قراءتك لديوانه بامعان بأنه مصاب بالخنزوانة التي هي جنون العظمة. ولقد بلغ به نازع الأزدراء إلى حد الزعم بأن كل ما خلق الله وما لم يخلق يعد محتقرا في همته كشعرة في مفرق شعره. ولا يخفى على قارئ ديوانه أنه كثير التنفج، بل إن تنفجه يصل إلى مستوى العنجهية التي تلامس تخوم الغوغائية في بعض الأحيان. وإليكم هذا البيت كمثال على ما أقول:

وكيف لا يحسد امرؤ علم

له على كل هامة قدم

فلكم هو ممجوج وسخيف، بل ضعيف، هذا التماذي المتطرف! هل يجوز لأي إنسان أن يزعم بأن قدمه تلو كل رأس في هذه الدنيا؟ أليس من الطبيعي الآن أن يذهب العاقل إلى أن خصوم المتنبى محقون، شأنهم في ذلك شأن أنصاره؟ وهذا هو بالضبط موقف الجرجاني حيث توسط بين الطرفين وكأنه قاض يعالج مشكلة حقوقية.

وعلى أية حال، دعنا نقرأ معا هذا البيت الشعري اللافت للانتباه:

همتي همة الملوك، ونفسي

نفس حرّ ترى المذلة كفرا

ولو لم يكن قد ورد ذكره في السطر الأول من هذه المقدمة لقلت: لا بأس في التساؤل عن قائلة. ألا يخطر في البال للوهلة الأولى بأن صاحبه هو المتنبى وليس سواه؟ ولكن هذا البيت للشافعي حقاً. ومما هو واضح أن التشابه كبير بينه وبين الكثير من أبيات المتنبى، بل قد لا أبالغ إذا ما زعمت بأن هذا البيت حصراً يلخص شخصية المتنبى، أو يعرض لبابها وجوهرها، مع أنه لم يقله بل قاله سواه.

وفي الميسور أن تجد أمثلة كثيرة على هذا المعنى في شعر المتنبى. خذ هذا البيت مثلاً:

أبدأ أقطع البلاد ونجمي

في نحوس وهمتي في صعود

وكذلك هذا:

غثاة عيشي أن تغث كرامتي

وليس بغث أن تغث المآكل

ومما لا تخطؤه العين حين يقرأ المرء شعر الإمام أن ذلك الشعر كثيراً ما يشير إلى أنه شديد الاعتداد بنفسه، ولكن النزعة الدينية قد هذبت الشافعي فخلصته من الإفراط في هذا الأمر. يقول الإمام:

عليّ ثياب لو تباع جميعها

بفلس لكان الفلس منهن أكثرها

فيهن نفس لو تقاس ببعضها

نفوس الورى كانت أجل وأكبرا

ولعل مما لا يخفى على الخبير بشعر المتتبي أن روحه ترخم في البيت الثاني بكل تأكيد. وهذا يعني أن الرجلين يشتركان في عنصر من العناصر التي تدشن الهوية، ولكن شريطة أن يكون الشافعي هو قائل البيتين الأخيرين.

ولا بأس في مثال آخر. يقول الإمام:

ولولا خشية الرحمن ربي

حسبت الناس كلهم عبيدي

وفي الحق أن الشطر الثاني من هذا البيت أليق بالمتتبي منه بالشافعي، الذي يعلن في بيت سابق لهذا البيت الأخير أنه أشجع من كل شجاع إذا ما حارب. ومن شأن هذا الزعم الأخير أن يذكر المرء بأقوال كثيرة للمتتبي لها صلة بالفحوى نفسه.

ومما هو جدير بالتنويه كذلك أن حقد المتتبي على الملوك له مثل صريح

في شعر الإمام. يقول الأخير:

إن الملوك بلاء حيثما حلوا

فلا يكن لك في أبوابهم ظل

ماذا تؤمل من قوم إذا غضبوا

جاروا عليك، وإن أرضيتهم ملوا

فاستغن بالله عن أبوابهم كرمأ

إن الوقوف على أبوابهم ذل

أما المتبني فكان في صدر شبابه ثورة صريحة على الملوك الذين يزدريهم
بتطرف هو صفة من صفاته الدائمة. يقول أبو الطيب:

ميعاد كل رقيق الشفرتين غداً

ومن عصى من ملوك العرب

فهو بيتغي جهراً أن تركع جميع سلاطين الأرض، من العرب والعجم والديلم
والروم والفرنجة، تحت قدميه، حتى كأنه وثن يستحق العبادة والتقديس في هذه
الدنيا التي يزدريها لأنها تتمرد عليه، ولا تعنو لسلطته المطلقة.

وها هو ذا يقول في موضع آخر:

أيملك الملك والأسياف ظامئةً

والطير جائعة لحمٍ على وضم

من لو رأني ماءً مات من ظمأ

ولو عرضت له في النوم لم ينم

ومعنى هذين البيتين أن الذين يملكون الملك في هذا العالم هم من الهزال
بحيث لا يزيدون عن كونهم لحمًا على وضم، أي على الخشبة التي يستعملها اللحم
للتقطيع اللحم. ثم إن الملوك لو رأوه ماءً لماتوا عطشاً، ولو عرض لهم في نومهم
لجفاهم النوم. ومع أنه أخفق في ثورته المسلحة وأودع السجن في حمص لمدة سنتين
(٣٢٢ - ٣٢٤ هـ)، فإنه لم يكف عن تحديه للملوك ولا عن احتقاره لهم. فهذا هو ذا
يقول في واحدة من أجود قصائده الساخطة:

ولا تحسبنَّ المجد زقاً وقينة
فما المجد إلا السيف والفتكة البكر
وتضريب أعناق الملوك، وأن ترى
لك الهبوات السود والعسكر المجر

ثم يضيف في هذه القصيدة نفسها:

وجنّبي قرب السلاطين مقتها
وما يقتضيني من جماجمها النسر

ولعل مما هو ناصع تمام النصوع أن المتبني يجسّد قوة الإزدراء على نحو نادر في الثقافة العربية برمتها، وهو بهذا يوقظ في قارئه غريزة العظمة ونزعة الحرية والإباء. ثم إنه، كالشافعي حقاً، شاعر الكرامة والعزة والأنفة، بغض النظر عن مثالبه التي لا تخفى على كل من تحرر من البغاوية والتبعية الساذجة. فلا ريب عندي بأنه مثلوب بمثلبتين على الأقل: التفتج السمج والمبالغات الممجوجة. وهذا يعني أن أعداءه محقّون وأنصاره محقّون في آن واحد. فلئن كانت فيه بعض المثالب فإن له من المناقب ما لا يحصى. وفي الحق أن الشطر الجيد من شعره لا يبذه أي شعر آخر في اللغة العربية طوال تاريخها كله.

❖ ❖ ❖
أسلفت عليك أن شعر الإمام كثيراً ما يتضجر من الناس، وكذلك من الزمان، أو من الحياة التي تمنح الأندال وتحرم الطيبين. ولا عجب في الأمر، إذ لقد عاش الرجل فقيراً طوال عمره القصير بعض الشيء. ولا بد أنه لاقى عنثاً من الناس، أو من بعضهم، وذلك بحكم كونه مؤسس مذهب ديني من شأنه أن يثير الضغائن، أو شيئاً من المعارضة والاستنكار لآرائه المستجدة.

فمن عادة البشر أن يتكروا لكل من يحاول الخروج على قواعدهم المستتبة، أو كل من يتجه صوب التجديد. وهذان العاملان، الفقر الشديد والجنوح إلى حيازة الرأي الحر المستقل والمبتكر، هما ما يفسّر هذه الظاهرة في شعر الإمام، أقصد ظاهرة الشكوى من عدوان الناس وجلافتهم، وكذلك الشكوى من أن المجتمع يمنح الذين لا يستحقون ويحرم أولئك الذين يبذلون جهوداً جلى تستحق المكافأة أو التعويض.

والآن، لا بأس في شيء من الأمثلة. يقول الإمام:

أرى حمراً ترعى وتعلف ما تهوى
وأسداً جياًعاً تظماً الدهر لا تروى
وأشراف قومٍ لا ينالون قوتهم
وقوماً لثاماً تأكل المن والسلوى

لعل الحرمان الذي كابده الشافعي، ولا سيما في طفولته، أن يكون المؤسس الأول لهذين البيتين. وينطوي البيت الثاني على فكرة طالما عرضها المتنبى في شعره، وخلصتها أن الحياة تحرم أفاضل الناس وتكرم لثامهم، أو قل إنه لا ينجح في هذه الدنيا الدنية إلا من كان عديم الشرف وخالياً من الكرامة.

وللشافعي بيتان آخران يشبهان هذين البيتين الأخيرين إلى حد بعيد. يقول:

تموت الأسد في الغابات جوعاً
ولحم الضأن تأكله الكلاب
وعبد قد ينام على حريير
وذو نسب مفارشه التراب

ففي البيت الأول من المقبوس الأخير تجد الأسد الجياع التي كانت في البيت الأول من المقبوس السالف. وبدلاً من الحمير التي ترعى وتلطف كما تهوى، فإنك تجد الكلاب التي تأكل لحم الضأن في المقبوس الأخير. أما العبد الذي ينام على الحرير، فإنه البديل عن القوم اللئام الذين يأكلون المن والسلوى. وأما ذو النسب الذي يفترش التراب فقد حل محل الأشراف الذين لا يحصلون على طعامهم. فالبرهتان، إذن، برهة واحدة في عقر فحواها الأصلي. ولعلها تتضمن ما يؤشر إلى حال بعض الناس ممن كان الإمام يعرفهم، أو ممن يهمه أمرهم إلى هذا الحد أو ذاك.

ولقد سبق لهذه المقدمة أن بينت نظرة الإمام للزمان الذي يملك أعناق الكرام ويسترقهم كالعبيد، بينما تراه يعنو للأوغاد ويصبح مجرد عبد لهم، يطيعهم وينفذ أوامرهم بكل خنوع. وههنا قد يتذكر المرء قول المتنبى:

أفاضل الناس أغراض لدى الزمن
يخلو من الهم أخلاهم من الفطن

ف لدى الشاعرين كليهما يتبدى الزمان عدواً للأفاضل وصديقاً للأندال.

ومن المؤكد أن الشافعي قد كان شديد الفقر والعوز، ومثله لا يسعه قط أن ينظر إلى الزمان إلا نظرة كهذه النظرة، فيراه يستعبد أصحاب النفوس الكبيرة، ويستخذي أمام الأندال والأوغاد. ولقد بلغ به الاشمئزاز من الناس مبلغاً دفعه إلى التطرف بحيث راح يتمنى مجاورة الكلاب بدلاً من مجاورة البشر، وهذا ما قاله في بيت شعر أوردته سالفاً في سياق هذه المقدمة.

ولكنني أكاد أن أجزم بأن الشافعي لم يقل هذا البيت الشعري قط، إذ إنه لا يليق البتة بإمام يسعى إلى إنشاء مذهب ديني خاص.

وعلى أية حال، ها هو ذا يقول في موضع آخر:

إني صحبت الناس ما لهم عدد
وكنت أحسب أني قد ملأت يدي
لما بلوت أخلائي وجدتهم
كالدهر في الغدر لم يُبقوا على أحد

إن هذا الشعور المرير بالاغتراب في هذه الدنيا له ما يقابله تماماً في شعر
أبي الطيب:

ما مقامي بأرض نحلة إلا
كمقام المسيح بين اليهود
أنا في أمة تداركها الله
غريب كصالح في ثمود

وفي موضع آخر ترى المتنبّي، تحت ضغط الاغتراب، يتمنى الموت لأنه لم يجد
صديقاً، ولا حتى عدواً مداجياً. ويبدو أن أصحاب القامات الفارحة قد كان حتماً
عليهم أن يعيشوا بغير أصدقاء، إذ لعل من شأن العبقرية أن ترفض التكيف
مع كل ما هو مألوف أو عادي.

ولكن لا بأس في الإشارة إلى أن المعري شديد الشبه بالشافعي والمتنبّي
في هذا الجانب من جوانب الشخصية، أقصد الشعور بالاغتراب أو بالاستلاب
الاجتماعي، وكذلك التضجر من الناس ومن سوء العلاقة بهم. ولهذا فقد سجن
نفسه في منزله ورأى أنه رهين ثلاثة محابس، هي محبس العمى، ومحبس البيت،

وأن (النفس في الجسد الخبيث). وكثيرا ما أشار إلى عزلته ووحدته بطريقة تدل
دلالة حاسمة على مكابدة مرارة الاغتراب. ولا بأس إذا ما استشهدت بهذا البيت:

تخير، فإما عزلة مثل ميتة

وإما جليس في الأنام منافق

بل إن شعوره بالغربة الوجودية قد كان صريحا جدا. وهذا بيت يؤكد صحة
هذا الزعم:

هي غربتان، فغربة من عاقل

ثم اغتراب من محكم عقله

وأيا ما كان جوهر الشأن، فإن ما قاله المتبني في الزمان يبذ كل قول آخر.
فمن ذا الذي أدرك حقيقة الأمر كما فعل أبو الطيب، اللهم إلا أن يكون ابن
خلدون الذي عاش بعد الشاعر بخمسة قرون، أو أكثر بقليل. فهذا هو المتبني يقول:

أتى الزمان بنوه في شبيبته

فسرهم وأتيناها على الهرم

ثم إنه يرفض زمنه رفضا نهائيا في هذا البيت الشعري النادر:

دهر يمر وعمر لیت مدته

في غير أمته من سالف الأمم

صديق في ذهني أن المتبني هو شاعر الوجدان الشديد الخصوصية، وصانع الصور التي تتم عن فردية فريدة نأت بنفسها عما سواها حتى وقفت على حيدة من الجميع. وهذه صورة شعرية أسردها لتكون بمثابة مصداق على ما أزعم:

ولو برز الزمان إليّ فرداً
لخضّب شعر مفرقه حسامي

ثم إنه حاقد على الزمان (أي على الوجود، أو على الحياة)، وكذلك على البشر إلى حد متطرف، بل شديد الإيغال في الإفراط. فلئن كان الشافعي يتضجر من الناس ومن الزمن الذي عاش فيه، فإن المتبني قد بلغ من الاغتراب حداً جعله ناقماً على الأشياء، بل مكفهر النفس ميالاً إلى العدوان. اسمعه يقول:

ومن عرف الأيام معرفتي بها
وبالناس، روى رمحه غير راحم

ولعل من شأن هذا البيت الموغل في النزق أن يذكر المرء بقول الشافعي الأنف الذكر، وذلك حين ينصحك بأن تكون جحيماً كي تحرق أشواك الناس عندما تقترب منهم.

ناصر، إذن، أن كلاً من الرجلين مغترب كبير يكابد أزمة الاتصال بالناس، أو يقاسي معضلة الانتماء إلى زمنه الذي يعيش فيه. فكلا الرجلين مقتنع بأن الحياة قد منعتهم من البلوغ إلى حقه، أو إلى ما يستحقه من القيمتين المادية والمعنوية. وفضلاً عن ذلك، فإن كلا الرجلين حكيم، فهو ينم عن أصالة في استيعاب التجربة الحية، وكذلك عن قدرة نادرة على فهم الحياة التي يكابدها باستمرار. ولكن أهم ما في أمرهما هو تلك الحساسية النفيسة التي ينبثق منها

شعرهما، والتي من شأنها أن تجعل منهما كائنين متميزين في تاريخ الثقافة العربية.

بيد أن أبرز ما أرغب في التوكيد عليه يتلخص في أن ارتباط المتبني بالشافعي ليس من فضيلة (السرفقات)، وإنما هو علاقة بين متأثر ومؤثر. فمما هو شديد الصدق في ذهني أن السابق يصنع اللاحق في كل زمان ومكان، وأن الثاني مشروط بالأول على الدوام، ومن المحال أن تسير الأمور هماً، أو دون أن ترضخ لناموس الشارط والمشروط، الذي هو بالضبط ناموس القبل والبعد، أو ناموس الوالد والمولود. فحين تأخذ ما هو ناجز أو جاهز، فإنك تكون قد أخذت ما لم ينجز بعد، أو ما هو في سبيله إلى أن يصير، وذلك لأن السياق لا يفرز إلا ما هو مضمّر أو مكنون.

ومما هو بدهي أن حركة الشعر التراثي، التي لا ندري متى بدأ مسارها فعلاً، والتي أقدّر أنها ترقى إلى مطالع القرن السادس الميلادي، أو ربما قبل ذلك بكثير أو بقليل، إن تلك الحركة كانت قد راكمت ثرواتها الشعرية طوال أربعة قرون، أو خمسة، شديدة الخصوبة وغنية بالخبرة الفنية، بحيث صارت مؤهبة تمام التأهب لصنع شاعر كبير، فجاء المتبني في القرن العاشر الميلادي كنتيجة طبيعية لذلك التراكم ولتلك الخصوبة المعطاء.

لست أملك أن أزعم بأن هذه المقدمة الراهنة، على طولها أو على ضخامة حجمها الكمي، قد تمكّنت من أن تحيط بجميع القضايا ذات الصلة بشعر الإمام الشافعي. فهي لم تحلل الأسلوب لتكشف عن سماته بالتفصيل كما أنها لم تبحث في آثار الأسلاف على هذا الشاعر نفسه، ولم تبيّن تأثيره، أكان كبيراً أم صغيراً، على من جاء بعده من الشعراء، باستثناء المتبني. فلا بد لمثل هذا الشاعر الاغترابي، الذي اتهم بالنضال ضد السلطة، من أن يكون قد أثر على أبي العلاء بوجه خاص، وأبو العلاء هو الشاعر الذي يشعر بحق، وذلك لفرط حساسيته التي جعلت منه المغترب الأكبر في تاريخ الثقافة العربية بأسرها. فحين ينتهي المرء

من قراءة (اللزوميات)، فإنه سوف يدرك تمام الإدراك أن الاغتراب هو نفور الروح من الوجود، أو هو ذلك التنافي المتبادل الذي يمارسه كل من الروح والوجود أحدهما على الآخر.

وربما جاز الزعم بأن للشافعي تأثيراً على أبي تمام وابن الفارض بوجه خاص، إلا أن مثل هذا التأثير لم يبحث في هذه المقدمة. ولكن لا يجوز لأي امرئ أن يزعم بأن هذا الشاعر هو مؤسس شعر الاغتراب في حركة الشعر التراثي، إذ لا ريب في أن شعراء الجاهلية قد سبقوا جميع الشعراء العرب إلى اتخاذ هذه الموضوعات واحداً من أكبر العناصر التي تؤلف فحوى القصيدة. وعندني أن قصيدة مثل لامية العرب هي قصيدة اغتراب في المقام الأول. أما شعر طرفة بن العبد وامرئ القيس الكندي فيكاد الاغتراب أن يكون لحمته وسداه في الوقت نفسه.

ومن المؤكد أن أبا العتاهية الذي يكبر الإمام بعشرين سنة، أو زها ذلك، هو المغترب الأكبر في القرن الثاني الهجري. ولكن المرء يسعه أن يزعم بأن الإمام قد كان أكثر تأثيراً من أبي العتاهية على الشعراء اللاحقين، ولا سيما على المتتبي والمعري، اللذين هما ذروة الشعر العربي كله.

وأياً ما كان الأمر، فإن دراسة ديوان الشافعي، بل أي ديوان شعري أصيل، لا يشبعها إلا مجلد قائم بذاته، وليس مقدمة هي، بحكم منطقتها، صغيرة المساحة مهما تكثر صفحاتها. فلو أراد المرء أن يكشف عن جذور أسلوب الشاعر، وهي الضاربة في تربة أسلافه حتماً، وكذلك في طبيعة المدن المتخشبة التي عاش فيها، ولا سيما بغداد الرشيد الشديدة الانغماس في الترف، لو أراد المرء ذلك لاحتاج إلى جهد كبير، لأن مثل هذا العمل في منتهى العسر والمشقة.

ولكنني أستطيع أن أزعم بأن أسلوب الشافعي الشديد البساطة، متأثر بالنشاط الأكبر الذي كان يمارسه الإمام، أعني فقه الدين والتعرف على أصوله وفروعه. فالإمام فقيه أولاً وشاعر ثانياً، وليس العكس. وهذا يعني أن الشعر فاعلية

ثانوية في حياة الرجل. وإذا ما علمنا أن الفقه في جوهره محاولة لتوضيح أمور الدين وتبسيطها وتيسيرها للناس، أدركنا لماذا كان أسلوب الشافعي بسيطاً ومباشراً وخالياً من الصنعة الفنية، إذ لا بد لتبسيط الدين وتوضيحه من أن يواكبه أو يلزمه تبسيط في اللغة أو في الأسلوب، بحيث يعرى القول الشعري من معظم أصناف البلاغة والانتحاء اللغوي الخاص.

أما أن شعر الإمام منحول كله، فهذا شأن لم يعد في الميسور البتة أن يتأكد منه أحد، كائناً من كان. ولكن بعضه منحول جزماً. ثم إن المنحول منه بيّن في ذاته، وذلك بسبب ما يندرج فيه من اصطناع لا يخفى على كل من صان ذائقته الفنية من التلف أو من الفساد. فلو قرأ المرء جميع القصائد المنسوبة إلى الشافعي للاحظ أن لها أسلوبين، على الأقل، أولهما سويّ تتمتع لغته بحرية الحركة، وثانيهما متليف تتبدى عليه أمارات التخشب والتلمظ الممجوج، وذلك لأن أسلوبها محشوٌّ بالوعورة والحركة الثقيلة المحرومة من الانسياب التلقائي الحر.

لم يبق إلا أن أشير إلى أن القصائد التي تحتويها هذه الطبعة الراهنة قد أخذتها من طبعات كثيرة ومتنوعة. وهي في الحقيقة مختارات قد لا تزيد عن نصف الشعر المنسوب إلى الشافعي، وذلك لأنني حاولت أن أجتنب كل قصيدة أحسبها منحولة أو مزورة. ولهذا، فإن الأسلوب في جميع هذه القصائد الراهنة، أو في معظمها، موحد تقريباً، أو لعله أن يكون شديد التشابه والتقارب. وهذا يعني أن جل الأشعار المودعة في هذه الطبعة تتميز بلغة بسيطة تنساب على نحو تلقائي، ودون أية وعورة أو تلغثم.

وكلي أمل في أن أكون قد عملت وفقاً للمبدأ الذي تحتويه هذه الآية الكريمة:
(أما الزيد فيذهب جُفاءً، وأما ما ينفع الناس فيمكث في الأرض) صدق الله العظيم.

مخيم اليرموك

نوّار، سنة ٢٠٠٣

ديوان الشافعي

obbeikandi.com

فافية الهمزة والألف

نصائح

دع الأيامَ تفعلْ ما تشاءُ
وطبِّ نفساً إذا حكم القضاءُ
ولا تجزعْ لحادثة الليالي
فما لحوادث الدنيا بقاء
وكن رجلاً على الأهوال جلدأً
وشيمتكُ السَّماحةُ والوفاءُ^(١)
وإن كثرتْ عيوبُك في البرايا
وسرُّك أن يكون لها غطاءُ^(٢)
تستترُ بالسَّخاءِ فكل عيب
يغطيه، كما قيل، السَّخاءُ^(٣)
ولا تُرِ للأعداي قُطْطاً ذلاً
فإن شماتة الأعدا بلاءُ^(٤)
ولا ترحُ السَّماحة من بخيل
فما في النار للظمآن ماء
إذا ما كنت ذات قلب قنوعٍ
فأنت ومالك الدنيا سواء
دع الأيامَ تغدرُ كلُّ حين
فما يغني عن الموت الدواء

(١) الشيمة: العادة.

(٢) البرايا: المخلوقات.

(٣) السَّخاء: الكرم أو العطاء مجاناً.

(٤) الشماتة: سرور عدوك بمصيبتك.

جور الزمان

أرى حمرا ترعى وتعلف ما تهوى
وأسدا جياعا تظماً الدهر لا تروى^(٥)
وأشراف قومٍ لا ينالون قوتهم
وقوماً لئاماً تأكل المن والسلوى^(٦)
فمن عرف الدهر الخؤون وصرفه
تصبر للبلوى ولم يظهر الشكوى^(٧)

حرف الباء

الفرق

أصبحت مُطْرَحاً في معشر جهلوا
حقَّ الأديب فباعو الرأس بالذنب^(٨)
والناسُ يجمعهم شملٌ، وبينهم
في العقلِ فرقٌ وفي الآدابِ والحسب
كمثل ما الذهبُ الإبريزُ يشركه
في لونه الصُّفْرُ، والتفضيلُ للذهب

-
- (٥) حُمُر: حمير، أي جمع حمار - تظماً: تعطش.
(٦) قوتهم: طعامهم - المن والسلوى: طعامان ورد ذكرهما في القرآن الكريم.
(٧) الخؤون: الخائن أو الغدار - البلوى: المصيبة - صرف الزمان: حوادثه ومصائبه.
(٨) مُطْرَحاً (بتشديد الطاء): مرمياً.
(٩) الحسب: ما هو من مآثر الآباء والأجداد.
(١٠) الذهب الإبريز: الخالص الذي لا تخلطه أية مادة أخرى - الصُّفْر (بضم فسكون): النحاس.

والعودُ لو لم تَطِبْ منه روائِحُه
لم يَفِرِّقِ الناسُ بين العودِ والحطبِ

أين العدل

تموت الأسدُ في الغاباتِ جوعاً
ولحمُ الضأنِ تَأْكُلُه الكلابُ
وعبدٌ قد ينامُ على حريقِ
وذو نسبٍ مفارشُه الترابِ^(١٢)

غرور وسراب

خبتُ نارُ نفسي باشتعالِ مفارقي
وأظلم ليلى إذ أضاء شهابها^(١٣)
أيا بومةً قد عَشَّتْ فوق هامتي
على الرغمِ مني حين طار غرابها^(١٤)
رأيتِ خرابَ العمرِ مني فزرتي
ومأواك من كل الديار خرابها
أأنعم عيشاً بعدما حل عارضي
طلائعِ شيبِ ليس يغني خضابها^(١٥)

(١١) يفرق: يميز.

(١٢) ذو نسب: هو من ينتمي إلى أسرة كريمة.

(١٣) خبت: انطفأت - مفارقي: شعري. والمقصود أن شعره قد اشتعل شيباً. ومن شأن هذا الاشتعال أن يجعل النفس تظلم حزناً على بداية الشيخوخة.

(١٤) الهامة: الرأس. شبه الشيب بالبومة وسواد الشعر بالغراب.

(١٥) العارض: جانب الرأس. - طلائع: أوائل أو بدايات.

إذا اصفرَّ لونُ المرءِ وابيضَّ شعرُهُ

تتغص من أيامه مستطابها

فدع عنك سوءات الأمور فإنها

حرامٌ على نفسِ التقيِّ ارتكابها^(١٦)

وأدِّ زكاةَ الجاهِ، واعلمَ بأنها

كمثلِ زكاةِ المالِ تمَّ نصابها^(١٧)

وأحسنْ إلى الأحرارِ تملكْ رقابهم

فخيرُ تجاراتِ الكرامِ اكتسابها

ولا تمشينَ في منكبِ الأرضِ فاحراً

فعمَّا قليلٍ يحتويك ترابها^(١٨)

ومن يذقِ الدنيا، فإني طعمتها

وسيقِ إلينا عذبها وعذابها^(١٩)

فلم أرها إلا غروراً وباطلاً

كما لاح في ظهرِ الفلاةِ سرابها^(٢٠)

وما هي إلا جيفةٌ مستحيلةٌ

عليها كلابٌ همهنَّ اجتذابها^(٢١)

فإن تجتذبها كنتِ سلماً لأهلها

وإن تجتذبها نازعتك كلابها

فطوبى لنفسٍ أولعتْ قعرَ دارها

مُغلقةً الأبوابِ مرخى حجابها^(٢٢)

(١٦) سوءات: كل ما هو سيء.

(١٧) النصاب: هو المبلغ الذي تجب عليه الزكاة.

(١٨) منكب الأرض: ناحية من نواحيها.

(١٩) طعمتها: أكلتها.

(٢٠) الفلاة: البرية.

(٢١) مستحيلة: متحوّلة أو متغيرة.

الحلم

يُخاطبني السَفيهُ بكلِّ قُبْحٍ
فأكرهُ أن أكونَ لهَ مجيئاً^(٢٣)
يزيدُ سَفاهَةً فأزيدُ حِلْماً
كعودِ زاده الإحراقِ طيباً^(٢٤)

الإيثار

ولو أنني أسعى لنفعي وجدتني
كثير التواني للذي أنا طالبه
ولكنني أسعى لأنفع صاحبي
وعار على الشعبان إن جاع صاحبه

الحب المرفوض

ومن البليّة أن تحب
ولا يحبك من تحبه^(٢٦)
ويصد عنك بوجهه
وتلح أنت، فلا تغبه^(٢٧)

(٢٢) طوبى: هنيئاً. ويبدو أن هذه الكلمة ذات صلة باليوتوبيا التي هي بلد خيالي فيه هناء وسعادة وليس فيه أي شقاء. - أولعت: أحبت بإفراط.

(٢٣) السفيه: الضعيف العقل.

(٢٤) الحلم: العقل، أو رصانة العقل ممزوجة بالطيبة والأناة.

(٢٥) التواني: الفتور والبطء في الحركة. وهذا البيت تجسيد للإيثار أو لمكارم الأخلاق التي ترى الأنا من أجل الآخرين قبل أن تكون من أجل ذاتها.

(٢٦) البليّة: المصيبة.

القناعة

بلوت بني الدنيا فلم أر فيهم
سوى من غدا والبخل ملء إهابه^(٢٨)
فجردت من غمد القناعة صارما
قطعت رجائي منهم بذبابه^(٢٩)
غني بلا مال عن الناس كلهم
وليس الغنى إلا عن الشيء لا به
فكم قد رأينا ظالماً متمرداً
يرى النجم تيهاً تحت ظل ركابه
فعمماً قليل، وهو في غفلاته،
أنأخت صروف الحادثات ببابه^(٣٠)
وجوزي بالأمر الذي كان فاعلاً
وصب عليه الله سوطاً عذابه^(٣١)

مكارم الأخلاق

أحب مكارم الأخلاق جهدي
وأكره أن أعيب وأن أعايب^(٣٢)
وأصفح عن سياب الناس حليماً
وشر الناس من يهوى السبابا^(٣٣)

(٢٧) تُغَيِّه: ترضيه، أو تصل إلى قلبه.

(٢٨) بلوت: جريت وخبرت. - الإهاب: سطح الجلد.

(٢٩) ذباب السيف: حده.

(٣٠) صروف الحادثات: مصائب الدهر.

(٣١) جوزي: عوقب. - السوط: الكرياح وسوط العذاب هو العقاب الشديد، على المجاز. وقد وردت

هذه العبارة في القرآن الكريم.

(٣٢) جهدي: أي على قدر استطاعتي.

السفر

ما في المُقام لذي عقل وذي أدبٍ
من راحة، فدع الأوطانَ واغترِبِ^(٣٤)
سافرَ تجدَّ عوضاً عمَّن تفارقُهُ
وانصبَّ، فإن لذيذ العيش في النصب
إن ساح طاب، وإن لم يجر لم يطب
والشمسُ لو وقفت في الفلكِ دائمةً
لملها الناسُ من عجمٍ ومن عربٍ^(٣٧)

الغر

أرى الغرَّ في الدنيا، إذا كان فاضلاً
ترقى على روسِ الرجالِ ويخطبُ^(٣٨)
وإن كان مثلي لا فضيلة عنده
يقاس بطفل في الشوارع يلعب

(٣٣) الحلم: رزانة العقل والعمو عند المقدرة. وهي بكسر الحاء وجزم اللام.

(٣٤) المُقام: الإقامة والاستقرار.

(٣٥) إنصب: إتعب. والنصب: شدة التعب.

(٣٦) ساح: سار.

(٣٧) الفلك: (بفتح الفاء) مدار النجم. وقد اضطر الشاعر أن يسكن اللام ليستقيم الوزن الشعري.

(٣٨) الغرّ: (بكسر الغين المعجمة وتشديد الراء) هو من لا خبرة له أو تجربة.

مغامرة

سأضرب في طول البلاد وعرضها
أنال مُرادِي أو أموتُ غريباً^(٣٩)
فإن تلفتَ نفسي فليله دُرُها
وإن سلمتْ كان الرجوع قريباً^(٤٠)

حرف الناء

الأحياء والأموات

وأفضلُ الناسِ ما بين الوري رجلٌ
تُقضى على يده للناسِ حاجاتٌ^(٤١)
قد مات قومٌ وما ماتت مكارمهم
وعاش قوم وهم في الناسِ أمواتٌ

تحية للعدو

لما عفوت ولم أحقد على أحدٍ
أرحت نفسي من همِّ العداواتِ
إني أحيي عدويّ عند رؤيتهِ
لأدفع الشرَّ عني بالتحياتِ
الناسُ داءٌ، وداء الناسِ قريبهم
وفي اعتزالهم قطع الموداتِ^(٤٢)

(٣٩) المراد: المطلوب.

(٤٠) لله دُرُها: أي لله عملها. والدُرُّ في الأصل هو ما تدره المواشي من الحليب. وقد استعملت هذه

الكلمة على المجاز.

(٤١) الوري: الخلق (بفتح فسكون).

السكوت أفضل

إذا نطق السفيةُ فلا تجبهُ
فخيرٌ من إجابته السكوت^(٤٣)
فإن كلمته فرجت عنه
وإن خيَّته كمداً يموت^(٤٤)

الاعتذار مصيبة عند الاستجداء

يا لهفَ نفسي على مالٍ أفرقهُ
على المقلِّين من أهلِ المروآت^(٤٥)
إن اعتذاري إلى من جاء يسألني
ما ليس عندي لمن جنسِ المصيباتِ

(٤٢) قالت الفلاسفة الحديثة: (الآخرون هم الجحيم). وهذا ما يقوله البيت الأخير. بيد أن الشاعر يتبّه للأزمة الناشئة، فالاقتراب من الناس معضلة، لأنهم أشرار، أما الابتعاد عنهم فهو معضلة أخرى، لأن في ذلك انقطاعاً عن المودة والألفة والأنس بالآخرين.

(٤٣) السفية: ضعيف العقل.

(٤٤) الكمد: الغم والهم والحزن الشديد.

(٤٥) يا لهف نفسي: يا حسرتي - المقلون: أهل القلة، أو الفقراء.

لغة المال

وَأَنْطَقَتِ الدَّرَاهِمُ بَعْدَ صَمْتٍ
أَنْسَاءً بَعْدَ مَا كَانُوا سُكُوتًا
فَمَا عَطَفُوا عَلَى أَحَدٍ بِفَضْلٍ
وَلَا عَرَفُوا لِمَكْرُمَةٍ تُبَوِّتَانِ^(٤٦)
كَذَلِكَ الْمَالُ يَنْطِقُ كُلَّ عَيٍّْ
وَيَتْرِكُ كُلَّ ذِي أَدَبٍ صَمُوتَانِ^(٤٧)

الصديق المناسب

أَحِبُّ مِنَ الْإِخْوَانِ كُلِّ مُوَاتِي
وَكُلِّ غَضِيضِ الطَّرْفِ عَن عَثْرَاتِي^(٤٨)
فَمَنْ لِي بِهَذَا؟ لَيْتَ أَنِّي أَصِيبُهُ
لِقَاسِمَتِهِ مَا لِي مِنَ الْحَسَنَاتِ
تَصَفَحْتُ إِخْوَانِي، فَكَانَ أَقْلَهُمْ
_ عَلَى كَثْرَةِ الْإِخْوَانِ _ أَهْلُ ثِقَاتِي^(٤٩)

(٤٦) المَكْرُمَةُ (بفتح فسكون فضم): هي الفعل الحسن الذي يورث الحمد والمجد.

(٤٧) العي (بفتح العين): هو من ينطق بصعوبة قصوى.

(٤٨) المواتي: الذي يوافقك.

(٤٩) أهل ثقاتي: الذين يستحقون ثقتي.

المعلم

اصبرْ على مرِّ الجفا من مُعَلِّمٍ
فإن رسوبَ العلمِ في نفراتِه^(٥٠)
ومن لم يذقْ مرَّ التعلّم ساعةً
تجرّع ذلَّ الجهلِ طولَ حياتِه
ومن فاتَه التعلّم وقتَ شبابه
فكبرَّ عليه أربعاً لوفاتِه

حرف البية

الضيقة والفرج

ولربَّ نازلةٍ يضيّقُ لها الفتى
ذرعاً، وعند الله منها المخرجُ
ضاقتْ، فلما استحكمتْ حلقاتها
فُرجتْ، وكنتْ أظنها لا تُفرجُ

.....
(٥٠) الجفا: الإعراض. واستعارها الشاعر لتعني العسر — رسوب العلم: رسوخه في العقل. —
النفرات: جمع النفرة، وهي النفور.

إكليل الكلام

- عندي يواقيت القريض ودره
وعلي إكليل الكلام وتاجه^(٥١)
تري على روض الربا أزهاره
ويرف في نادي الندى ديباجه^(٥٢)
والشاعر المنطيق أسود سالخ
والشعر منه لعابه ومجابه^(٥٣)
وعداوة الشعراء داء معضل
ولقد يهون على الكريم علاجه^(٥٤)

.....
(٥١) القريض: الشعر.

(٥٢) تري: تعيش - الربا: جمع رابية، وهي التلة الصغيرة. - الديباج: الحرير. واستعار الكلمة ليكني بها عن الجودة أو عن الجمال والرونق.

(٥٣) المنطيق: القادر على القول الجيد. - أسود سالخ: ثعبان أسود يسلم جلدته كل عام. وهو هنا كناية عن القوة. - مجابه: العصير، أو ما يفرزه النحل من عسل.

(٥٤) معضل: أي لا حل له ولا علاج بتاتاً.

حرف الجاء

الصمت

قالوا: سكتَّ وقد حُوصمتَ. قلت لهم:

إن الجواب لبابِ الشرِّ مفتاحُ

والصمتُ عن جاهلٍ أو أحمقٍ شرفٌ

وفيه أيضاً لصونِ العرضِ إصلاحُ

أما ترى الأسدَ تخشى وهي صامتةٌ

والكلبُ يُخسى، لعمرى، وهو نبَّاحٌ^(٥٥)

حرف الحال

الكلاب أفضل

ليت الكلابَ لنا كانت مجاورةً

وليتنا لا نرى ممن نرى أحدا

إن الكلابَ لتهدى في مواطنها

والخلقُ ليس بهادٍ شرُّهم أبدا

فاهربْ بنفسِكِ واستأنسْ بوحدتها

تبقى سعيداً إذا ما كنتَ منفرداً^(٥٦)

(٥٥) يخسى: يطرد.

(٥٦) لم يُحذف حرف العلة من كلمة (تبقى) وذلك لضرورة الوزن.

الزمان

مِحْنُ الزَّمَانِ كَثِيرَةٌ لَا تَنْقُضِي
وَسُرُورُهُ يَأْتِيكَ كَالْأَعْيَادِ^(٥٧)
مَلِكِ الْأَكْبَابِ فَاسْتَرَقَّ رِقَابَهُمْ
وَتَرَاهُ رِقَابًا فِي يَدِ الْأَوْغَادِ^(٥٨)

لا خير في الناس

إِنِّي أَتَيْتُ النَّاسَ مَا لَهُمْ عَدْدٌ
وَكُنْتُ أَحْسَبُ أَنِّي قَدْ مَلَأْتُ يَدِي
لَمَّا بَلَوْتُ أَخْلَائِي وَجَدْتُهُمْ
كَالدَّهْرِ فِي الْغَدْرِ، لَمْ يَبْقُوا عَلَى أَحَدٍ
إِنْ غَبْتُ عَنْهُمْ فَشَرُّ النَّاسِ يَشْتُمُنِي
وَإِنْ رَأَوْنِي بِخَيْرٍ سَاءَ لَهُمْ فَرَحِي
وَإِنْ رَأَوْنِي بِشَرٍّ سَرَّهُمْ نَكْدِي^(٦٠)

(٥٧) محن: جمع محنة، وهي المصيبة.

(٥٨) الأوغاد: جمع وغد، وهو الرذل الدنيء، أو الأحمق الضعيف.

(٥٩) بلوت: اختبرت أو جرّبت.

(٦٠) النكد: الغم واضطراب النفس.

هل من مساعد

ولما أتيتُ الناسَ أطلبُ عندهم
أخا ثقةً عند ابتلاءِ الشدائدِ (٦١)
تقلبُ في دهري رخاءً وشدَّةً
وناديتُ في الأحياءِ: هل من مساعد
فلم أرَ فيما ساءني غيرَ شامتٍ
ولم أرَ فيما سرني غيرَ حاسدٍ (٦٢)

عجبي

فيا عجبي، كيف يُعصى الإلهُ؟
أم كيف يجحدهُ الجاحدُ؟ (٦٣)
وفي كلِّ شيءٍ له آيةٌ
تدلُّ على أنه الواحدُ (٦٤)

(٦١) أخا ثقة: رجلاً موثقاً يعتمد عليه.. - ابتلاء الشدائد: نزولها لتختبرني.

(٦٢) الرخاء: عكس الشدة.

(٦٣) الشامت: الذي تسره مصيبتك.

(٦٤) يجحده: ينكره.

(٦٥) الآية: البرهان.

تفاءل

لا تياسن من لطف ربك في الحشا
في بطن أمك مضغاً ووليداً^(٦٦)
لو شاء أن تصلى جهنم خالداً
ما كان ألهم نفسك التوحيداً

إرادة الله

يريد المرء أن يعطى مناه
ويأبى الله إلا ما أراد
يقول المرء: فائدتي ومالي
وتقوى الله أفضل ما استفاداً

.....
(٦٦) الحشا: ما يحتويه البطن من أعضاء.

الشافعي والشعر

ولولا الشعرُ بالعلماءِ يُزري
لكنتُ اليومَ أشعرُ من لبيدٍ^(٦٧)
ولولا خشيةُ الرحمنِ ربي
حسبتُ الناسَ كلَّهم عبيدي

الغيب

كم ضاحكٍ والمنايا فوق هامتهِ
لو كان يعلم غيباً مات من كمدٍ^(٦٨)
من كان لم يؤتَ علماً في بقاءِ غدٍ
ماذا تفكره في رزقٍ بعد غدٍ؟

الاستسلام لله

إذا أصبحتُ عندي قوتٌ يومي
فخلَّ الهمُّ عني، يا سعيدُ
ولا تخطرْ همومُ غدٍ بيالي
فإنَّ غداً له رزقٌ جديدٌ^(٦٩)
أُسَلِّمُ إنَّ أرادَ اللهُ أمراً
فأتركُ ما أريدُ لما يريدُ

(٦٧) لبيد: هو لبيد بن ربيعة العامري، أدرك الإسلام فأسلم. عُمُرٌ طويلاً. له معلقة.

(٦٨) المنايا: جمع منية، وهي الموت. - الكمد: شدة الغم.

(٦٩) جزم الشاعر كلمة (تخطر) لضرورة الوزن الشعري.

المحفوظ

أرى راحةً للحقِّ عند قضائِهِ
ويثقلُ يوماً إن تركتُ على عمَدِ
وحسبُكَ حظاً أن تُرى غيرَ كاذبٍ
وقولُكَ: (لم أعلمُ)، وذلك من الجهدِ

الحساد

إني نشأتُ وحسّادي ذوو عددٍ
ربّ المعارج، لا تُفني لهم عدداً^(٧١)
إن يحسدوني على ما بي لما بهم
فمثلُ ما بي لما يجلبُ الحسداً

الأسفار

تغربُ عن الأوطانِ في طلبِ العُلا
وسافرُ ففني الأسفارِ خمسُ فوائدِ
تفرجُ همٌّ واكتسابُ معيشةٍ
وعلمٌ وآدابٌ وصحبةٌ ماجدِ

(٧٠) الجهد: الإنهاك، أو العسر والتعب الشديد.

(٧١) ذوو عدد: كثيرون. - المعارج: جمع معراج، أو جمع معرج، وهو الطريق الصاعد إلى الله. - لا تُفْن: لا تُزل، أو لا تُه. وقد أجبر الشاعر على تثبيت حرف العلة في آخر كلمة (تفني) ليستقيم الوزن الشعري.

حرف الباء

همة الملوك

أمطري لؤلؤاً، جبال سرنديب
وفيزي، آبار تكرر، تبرا^(٧٢)
أنا، إن عشت، لست أعدم قوتاً
وإذا مت لست أعدم قبراً
همّتي همة الملوك، ونفسي
نفس حرّ ترى المذلة كفرا
وإذا ما قنعت بالقوت عمري
فلمأذا أزور زيّداً وعمراً؟

عمّ البلاء

من ذا الذي قد نال راحة سرّه
في عُسره، إن كان، أو في يُسرّه؟
فلربما يلقى الغني بماله
أضعافاً ما يلقى الفقير بفقره
عمّ البلاء، لكلّ شمل فرقة
يرمى بها في يومه أو شهره

.....
(٧٢) سرنديب: هي جزيرة سيلان التي تسمى اليوم سريلانكا. وموقعها في البحر المحيط إلى الجنوب من الهند. وكانت مشهورة بجوهرها. - تكرر: إقليم في القرن الإفريقي الغربي يقع الآن في بلاد السنغال، وقد اشتهر بمناجم الذهب في الأيام الغابرة. - الآبار: قصد بها المناجم. - التبر: الذهب قبل استخلاصه، أو هو فلز الذهب، أو الذهب قبل صياغته.

ثياب ونفس

عليَّ ثيابٌ لو تباعُ جميعُها
بِفلسٍ لكان الفلَسُ منهنَّ أكثرًا^(٧٣)
فيهنَّ نفسٌ لو تقاسُ ببعضها
نفوسُ الوريِّ كانتْ أجلاً وأكبرًا^(٧٤)

الوحدة

إذا لم أجد خِلاً نقيّاً فوحدتني
الذُّبُّ وأشهى من غويٍّ أعاشره^(٧٥)
وأجلس وحدي للعبادة آمناً
أقرُّ لعيني من جليسٍ أحاذره

(٧٣) الفلَس (بفتح الفاء): أصغر وحدة نقدية في الزمن القديم.

(٧٤) الوري: الكائنات أو البشر حصراً.

(٧٥) الغويّ: الضال.

أهل الزمان

كن ساكنا في ذا الزمان بسيره
وعن الورى كن راهبا في ديره^(٧٦)
واغسل يديك من الزمان وأهله
واحذر مودتهم تقل من خيره
إنني اطلعت فلم أجد لي صاحبا
أصعبه في ذا الدهر أو في غيره
فتركت أسفلهم لكثرة شره
وتركت أعلاهم لقلّة خيره

القليد والكثير

وأكثر من الإخوان ما استطعت، إنهم
بُطونٌ إذا استتجدتهم وظهور^(٧٧)
وليس كثيراً ألف خلّ لعاقلٍ
وإن عدواً واحداً لكثير

(٧٦) لئن صح أن هذه الأبيات للشافعي، فإنها تتطوي على مفارقة، فالرجل الذي ينصحك بالسكون لم يكن ساكناً قط.

(٧٧) ثمة فرق بين فحوى هذين البيتين وفحوى الأبيات السابقة. فهنا يتبدى الأمر وكأن الشاعر قد هدم الموقف السابق برمته. فكيف يُحلُّ هذا الإشكال؟

الخسران

سأطلبُ علماً أو أموتُ ببلدةٍ
يقلُّ بها هطلُ الدموعِ على قبري
أليس من الخُسرانِ أنَّ ليالياً
تمرُّ بلا علمٍ وتُحسبُ من عمري^(٧٨)

القناعة

تدرَّعتُ ثوباً للقنوعِ حصينةً
أصونُ بها عرضي وأجعلها دُخرا^(٧٩)
ولم أحذر الدهرَ الخؤونَ فإنما
قُصاراهُ أن يرمي بي الموتَ

الخذر

أحسنتَ ظنك بالأيام إذ حسنتَ
ولم تخفِ سوءَ ما يأتي بهِ القدرُ
وسالمتك الليالي فاغتررتَ بها
وعند صفوِ الليالي يحدثُ الكدرُ

(٧٨) لست أعرف شاعراً تحدث عن حب المعرفة أكثر من الشافعي.

(٧٩) تدرعت: اتخذت درعاً. - عرضي: سمعتي وشرفي.

(٨٠) قصاراه: أقصى مدى له.

العاصي المستتر

لقد أطاعك من يُرضيك ظاهره
وقد أجلك من يعصيك مستترا

السكوت

وجدت سكوتي متجرا فلزمته
إذا لم أجد ربحا فلسيت بخاسر

الشوق إلى مصر

لقد أصبحت نفسي تتوق إلى مصر
ومن دونها قطع المهامه والقفر^(٨١)
فو الله ما أدري، أالفوز والغنى
أساق إليها، أم أساق إلى القبر

الكسوف للشمس

أما ترى البحر تعلقه فوقه جيف
وتستقر بأقصى قاعه الدرر
وفي السماء نجوم لا عداد لها
وليس يكسف إلا الشمس والقمر

(٨١) المهامه: الصحارى لا ماء فيها.

الأيام قهر

وما كنتُ راضٍ من زمني بما ترى
ولكنني راضٍ بما حكم الدهرُ
فإن كانتِ الأيامُ خانتَ عهدنا
فإني بها راضٍ، ولكنها قهر

حرف السين

العلم

العلمُ مغرسٌ كلٍ فخرٍ فاقتخر
واحذرٌ يفوتك فخرُ ذاك المغرسِ^(٨٢)
واعلمْ بأن العلمَ ليس ينأله
مَنْ همُّه في مأكَلٍ أو ملبسِ
فلعل يوماً، إن حضرتَ بمجلسٍ
كنت الرئيسَ وفخرَ ذاك المجلسِ

الأنس بالله

قلبي برحمتِكَ اللهم ذو أنسٍ
في السرِّ والجهرِ والإصباحِ والغلسِ
ما تقلبت في نومي وفي سنتي
إلا وذكركَ بين النفسِ والنفسِ^(٨٣)

(٨٢) المغرس: المنبت، أو مكان الغرس.

المنفيُّ بين الناس

صديقٌ ليس ينفعُ يومَ بؤسٍ
قريبٌ من عدوٍّ في القياسِ^(٨٤)
عمرتُ الدهرَ ملتمساً بجهدِي
أخا ثقةً، فألهاني التماسِي^(٨٥)
تكرتِ البلادُ ومن عليها
كأن أناسَها ليسوا بناسِ

كرامة الشيب

إحفظْ لشيبِك من عيبٍ يُدنِّسُهُ
إن البياضَ قليلُ الحملِ للدنسِ
تبغي النجاةَ ولم تسلكِ طريقَتَها
إن السفينةَ لا تجري على اليبسِ
يومَ القيامةِ لا مالٌ ولا ولدٌ
وضمةُ القبرِ تُنسي ليلةَ العرسِ

(٨٣) السُّنَّة (بكسر السين): درجة من درجات النوم.

(٨٤) القياس: التماثل أو التشابه.

(٨٥) أنفق الشاعر عمره يبحث عن صديق بجهد كله، ولكنه باء بالإخفاق. لقد لاحظ أحد الفلاسفة المحدثين أن صفات العبقرية في أي فرد كفيلة بأن تحرمه من الأصدقاء، وكلما أوغل في العبقرية أمعن الناس في نفيهم له.

حرف الصاد

العلم نور الله

شكوتُ إلى وكيعٍ سوءَ حِفْظِي
فأرشدني إلى تركِ المعاصي^(٨٦)
وأخبرني بأن العلمَ نورٌ
ونورُ الله لا يُهدى لعاصي

حرف الضاد

استرداد الهبات

إذا لم تجودوا والأُمورُ بكمْ تمضي
وقد ملكتْ أيديكمُ البسطَ والقبضا
فماذا يُرجي منكمُ، إن عَزَلْتُمْ
وعَضَّتْكمُ الدنيا بَأنيابها عَضًّا
ستسترجع الأيام ما وهبتكمُ
ومن عادهِ الأيام تسترجع القرضا

(٨٦) وكيع: هو وكيع بن الجراح الرُّؤاسي، ولد في الكوفة وتوفي فيها سنة ١٩٧ هـ. وربما

كان من أساتذة الشافعي أو من أصدقائه. وهو مشهور بروايته للأحاديث النبوية.

(٨٧) البسط والقبض كناية عن الحل والربط، أي عن التحكم في الشؤون العامة.

استرضاء المجاني

لَسْتُ مَمْنٌ إِذَا جَفَاهُ أَخُوهُ
أَظْهَرَ الذَّمَّ أَوْ تَتَاوَلَ عَرِضًا^(٨٨)
بَلْ إِذَا صَاحَبِي بَدَا لِي جَفَاهُ
عَدْتُ بِالْوُدِّ وَالْوَصَالِ لِيَرْضَى

إدبار القلب

أَرَى كُلَّ مَنْ أَصْفَيْتُهُ الْوُدَّ مُقْبِلًا
عَلَيَّ بِوَجْهِهِ وَهُوَ بِالْقَلْبِ مَعْرِضٌ^(٨٩)
بَلَيْتُ كَثِيرًا مِنْ أَنْاسِ صَحْبَتِهِمْ
فَمَا مِنْهُمْ إِلَّا حَسُودٌ وَمَبْغِضٌ

(٨٨) الجفاء أو الجفاء: قطع الصلة نتيجة لخلاف.

(٨٩) الوجه مقبل والقلب مدبر، هذا هو جزاء الود الصافي. وهذه هي خلاصة البيت. لقد أكد شوبنهور أن العبقرى محروم من نعمة الصداقة، وأنه لا محيد له عن مكابدة شقاء الوحدة والعزلة.

حرف العين

زكاة الجاه

وجبت علي زكاة ما ملكت يدي
وزكاة جَاهِي أَنْ أُعِينَ وَأَشْفَعَا
فإِذَا سُئِلْتَ فَجُدَّ، وَإِنْ لَمْ تَسْتَطِعْ
فاجهدْ بجهدك كله أَنْ تَنْفَعَا

أطم من تُحب

تعصى الإلهَ وَأَنْتَ تُظْهَرُ حُبَّهُ
هذا محالٌ في القياس بديع
لو كان حُبُّكَ صادقاً لأطعتهُ
إن المحبَّ لمن يُحبُّ مطيع

العاقل الورع

المرءُ إن كان عاقلاً ورعاً
أشغلهُ عن عيوبِ غيره ورعُهُ^(٩٠)
كما العليلُ السقيمُ أشغلهُ
عن وجعِ الناسِ كلِّهمْ وجعُهُ

(٩٠) الورع: اجتناب الحرام والشر والفساد.

حرف الفاء

لا وصول إلى سعاد

كيف الوصولُ إلى سعادَ ودونَها
قُلُّ الجبالِ ودونهنَّ حُتُوفُ
والرَّجُلُ حافيةٌ، ولا لي مركبٌ
والكفُّ صِفْرٌ والطريقُ مخوفٌ

الحياة الصداقة

إذا المرءُ لا يرعاك إلا تكلفا
فدعَه ولا تُكثِرْ عليه التأسفا
فما كلُّ من تهواه يهواك قلبه
ولا كلُّ من صافيته لك قد صفا
إذا لم يكن صفو الوداد طبيعةً
فلا خير في ودٍ يجيءُ تكلفا
سلام على الدنيا إذا لم يكن بها
صديق صدوق صادق الوعد منصفا

العلم

العلم يرفع بيتا لا عماد له
والجهل يهدم بيت العز والشرف

حرف الفاف

آداب السفر

إذ أرافقت في الأسفارِ قوماً

فكن لهم كذي الرحم الشفيق^(٩١)

فإن تأخذ بعثرتهم يقلّوا

وتبقى في الزمان بلا صديق^(٩٢)

الغريب

إن الغريب له مخافةٌ سارقٍ

وخضوعٌ مديونٍ وذلةٌ موثقٍ

فإذا تذكر أهله وبإلاده

ففؤاده كجناح طيرٍ خافقٍ

الرحل

إرحل بنفسك عن أرضٍ تضامٌ بها

ولا تكن من فراقِ الأهلِ في حرقٍ

فالكحلُّ نوعٌ من الأحجارِ تنظره

في أرضه وهو مرميٌّ على الطُّرقِ

لما تغربَّ حاز الفضلَ أجمعه

فصار يُحملُ بين الجفن والحدقِ

(٩١) ذو الرحم: القريب.

(٩٢) عشرتهم: يقصد زلتهم أو إساءتهم.

أخلاق

وتركي مواساة الأخلاء بالذي
حَوَّتَهُ يَدِي ظَلَمَ لَهُمْ وَعُقُوقٌ^(٩٣)
وَإِنِّي لِأَسْتَحْيِي مِنَ اللَّهِ أَنْ أَرَى
مَجَالَ اتِّسَاعِ وَالصَّدِيقِ مُضِيقٌ^(٩٤)

ألدُّ الأشياء

سَهْرِي لِتَتَّقِيحِ الْعُلُومِ أَلْدُّ لِي
مَنْ وَصَلَ غَانِيَةً وَطَيْبَ عِنَاقٍ^(٩٥)
وَأَلْدُّ مَنْ نَقَرَ الْفِتَاةَ لِذِقِّهَا
نَقْرِي لِأَلْقِي الرَّمْلَ عَنْ أَوْرَاقِي
وَأَبَيْتُ سَهْرَانَ الدُّجَى وَتَبَيْتُهُ
نَوْمًا وَتَبَغْيِي بَعْدَ ذَلِكَ لِحَاقِي^(٩٦)

.....
(٩٣) العقوق: التكرار للوالدين. واستعاره الشاعر كناية عن التكرار للأصدقاء. - الذي حوته
يدي: المال.
(٩٤) أستحوي: أخجل. - مُضِيق (بضم الميم): في حال الشدة والضيق بسبب الفقر.
(٩٥) الغانية: المرأة استغنت بجمالها عن الزينة.
(٩٦) الدُّجَى: الظلام.

احرق شوڪهم

لم يبقَ في الناسِ إلا المكرُ والملقُ
شوك إذا لمسوا، زهر إذا رُمقوا^(٩٧)
فإن دعتك ضرورات لعشرتهم
فكن جحيماً لعل الشوك يحترق

السر

إذا المرءُ أفشى سرَّهُ بلسانه
ولامَ عليه غيره فهو أحمقُ
إذا ضاق صدرُ المرءِ عن سرِّ نفسه
فصدرُ الذي يُستودعُ السرَّ أضيقُ

(٩٧) المكر: إضمار الشر. - الملق: المداهنة أو التزلف.

السعادة للحمقى

لو كان بالحيلِ الغنى لوجدتني
بنجوم أقطار السماء تعلقى^(٩٨)
لكنَّ من رُزقِ الحجى حُرم الغنى
ضِدَّانِ مفترقان أَيَّ تَفَرُّقٍ^(٩٩)
وأحقُّ خَلْقِ اللهِ بالهمِّ امرؤُ
ذو همّةٍ يَبْلَى بِرِزْقِ ضِيِّقِ
ومن الدليل على القضاء وحكمه
بؤسُ اللبيبِ وطيبُ عيشِ الأحمقِ

(٩٨) أقطار السماء: جوانبها.

(٩٩) الحجى: العقل. وربما كان الحجى اسماً للعقل حين يقرع الحجة بالحجة. وهو النهى عندما ينهاك عن الشر. وهو العقل حينما يعقل الحقائق، أو يدركها.

(١٠٠) اللبيب: ذو اللب، واللب هو العقل. فكأنما العقل لب الإنسان والجسد قشوره، تماماً كما هو حال الفواكه والثمار.

حرف الكاف

الشقاوة

ومِن الشَّقَاوَةِ أَنْ تُحِبَّ
وَمَنْ تُحِبُّ يُحِبُّ غَيْرَكَ
أَوْ أَنْ تَرِيدَ الْخَيْرَ لِي
نَسَانٍ وَهُوَ يَرِيدُ ضَيْرَكَ^(١٠١)

القناعة رأس الغنى

رَأَيْتُ الْقَنَاعَةَ رَأْسَ الْغِنَى
فَصِرْتُ بِأَذْيَالِهَا مُمْتَسِكًا
فَلَا ذَا يِرَانِي عَلَى بَابِهِ
وَلَا ذَا يِرَانِي بِهِ مِنْهُمْ^(١٠٢)
فَصِرْتُ غَنِيًّا بِأَلَا دَرَاهِمٍ
أَمْرٌ عَلَى النَّاسِ شِبْهَ الْمَلِكِ

(١٠١) الضير: الضرر.

(١٠٢) منهمك: شديد الاهتمام.

حرف اللام

نُدرة الأحرار

سألتُ الناسَ عن خلٍّ وفيّ
فقالوا ما إلى هذا سبيلٌ^(١٠٣)
تمسّكْ، إن ظفرتَ بذيْلِ حُرٍّ
فإن الحرف في الدنيا قليلٌ

نقص عقلي

كلّما أدبني الدهر
أراني نقص عقلي
وإذا ما ازددت علماً
زادني علماً بجاهلي

نفسي ومالي

أرى نفسي تتوق إلى أمور
يقصر دون مبلغهن مالي
فنفسي لا تطاوعني ببخل
ومالي لا يبلغني فعالي

(١٠٣) الخل: الخليل، أي الصديق.

الإخوان

صن النفس واحملها على ما يزينها
تعش سالماً والقول فيك جميل
ولا خير في ود امرئ متلون
إذا الريح مالت مال حيث تميل
وما أكثر الإخوان حين تعدهم
ولكنهم في النائبات قليل^(١٠٤)

تعلم

تعلم، فليس المرء يولد عالماً
وليس أخو علمٍ كمن هو جاهل
وإن كبير القوم لا علمَ عنده
صغير، إذا التفت عليه الجحافل^(١٠٥)
وإن صغير القوم إن كان عالماً
كبير إذا ردت إليه المحافل^(١٠٦)

(١٠٤) النائبات: المصائب.

(١٠٥) الجحافل: الجيوش الجرارة.

(١٠٦) المحافل: جمع محفل، والمحفل جمع من الناس. وقصد الشاعر بها القضايا والمشاكل.

الملوك

إن الملوكَ بلاءٌ حيثُما حلُّوا
فلا يكن لك في أبوابهم ظلٌّ
ماذا تؤمّل من قومٍ إذا غضبوا
جاروا عليك وإن أرضيتهم ملّوا
فاستغنِ بالله عن أبوابهم كرمًا
إن الوقوفَ على أبوابهم ذلٌّ

التفرغ للعلم

لا يدركُ الحكمة من عمِّره
يكدحُ في مصلحةِ الأهلِ (١٠٧)
ولا ينال العلم إلا فتى
خال من الأعمال والشُّغلِ
لو أن لقمان الحكيمَ الذي
سارت به الرُّكبانُ بالفضلِ (١٠٨)
بُلِّيَ بفقروعيالٍ لما
فرق بين التبن والبقل

(١٠٧) يكدح: يعمل بمشقة.

(١٠٨) الركبان: المسافرون.

الفعل المنحول

المرءُ يحظى ثم يعلو ذكره
حتى يُزيّن بالذي لم يفعل^(١٠٩)
وترى الشقيَّ، إذا تكامل عيبه
يشقى ويُنحل كل ما لم يعمل^(١١٠)

لا لون للهم

لم يدرِ طعمَ الفقرِ من هو في غنى
ومُصَحَّحُ الأَعْضاءِ ليس كمن بُلي
والناسُ جمعاً عند كلِّ كفوه^(١١١)
وَالهَمُّ مفترقٌ، وما أحدٌ خَلِي^(١١٢)
لو سوّدَ الهمُّ الملابسَ لم تجد
بيضَ الثيابِ على امرئٍ في محفل

(١٠٩) يحظى: أي يصبح ذا حظ، أو ينجح.

(١١٠) يُنحل: أي يُنسب إليه دون حق.

(١١١) كفوه: كفايته.

(١١٢) المحفل: جمع من الناس.

الجهد

بقدر الكد تُكتسبُ المعالي
ومن طلب العُلا سهر الليالي^(١١٣)
ومن رام العُلا من غير كدٍ
أضاع العمرَ في طلبِ المُحالِ

أهون الشرىن

ذُلُّ الحياةِ وهولُ المماتِ
كُلا أراه طعاماً وبيلاً^(١١٤)
فإن لم يكن غيرُ إحداهما
فسيرُّ إلى الموتِ سيراً جميلاً

الناس

الناسُ داءٌ دفينٌ لا دواءَ له
والعقلُ قد حارَ فيهمَ فهو منذهلٌ^(١١٥)
لقد تحيرتُ في أمري وأمرهمُ
لا باركَ اللهُ فيهمَ، كلهمُ سفلٌ

(١١٣) الكد: بذل الجهد الكبير. (ذهبت الفلسفة الرواقية إلى أن بذل الجهد هو الخير الأسمى).

(١١٤) الهول: الرعب.

(١١٥) لا أظن أن الشافعي هو من قال هذين البيتين. فربما نقله بعض الناس ما لم يقل.

حرف الميم

أَسَلُّكَ مَعَ الْعِلْمِ

مَعَ الْعِلْمِ فَاسَلُّكَ حَيْثَمَا سَلَكَ الْعِلْمُ
وَعَنْهُ فَسَائِلٌ كُلٌّ مِنْ عِنْدِهِ فَهَمْ
فِيَّ رَأَيْتُ الْجَهْلَ يُزْرِي بِأَهْلِيهِ
وَذُو الْعِلْمِ فِي الْأَقْوَامِ يَرْفَعُهُ الْعِلْمُ^(١١٦)
وَأَيُّ رَجَاءٍ فِي أَمْرٍ شَابَ رَأْسُهُ
وَأَفْنَى شَبَاباً وَهُوَ مُسْتَعْجِمٌ فَدَمٌ^(١١٧)

العلم كرامة

رَأَيْتُ الْعِلْمَ صَاحِبُهُ كَرِيمٌ
وَلَوْ وَلَدَتْهُ آبَاءٌ لَتَّامٌ
وَلَيْسَ يَزَالُ يَرْفَعُهُ إِلَى أَنْ
يُعْظَمَ أَمْرُهُ الْقَوْمُ الْكَرَامُ
وَيَتَّبِعُونَهُ فِي كُلِّ حَالٍ
كَرَاعِي الضَّأْنِ تَتَّبِعُهُ السَّوَامُ

(١١٦) يُزْرِي بِأَهْلِهِ: يُهَيِّنُهُمْ.

(١١٧) مُسْتَعْجِمٌ: لَا يَسْتَطِيعُ أَنْ يَتَكَلَّمَ. وَالْمَقْصُودُ أَنَّهُ لَا يَسْتَطِيعُ أَنْ يَتَكَلَّمَ كَلَامَ الْعُلَمَاءِ. - فَدَمٌ (بَفَتْحٍ فَسُكُونٍ): الْعَاجِزُ عَنِ النَّطْقِ، أَوْ مَنْ يَنْطِقُ بِصُعُوبَةٍ.

المثقف لا ينتهز

أرى الناسَ من داناہمُ ہان عندہمُ
ومن أكرمتہُ عزةُ النفسِ أكرما^(١١٨)
ولم أقضِ حق العلمِ إن كان كلما
بدا طمع صيرتہُ لي سلما

الجود في الفقر

أجود بموجود ولو بت طاويا
على الجوع كشحا والحشا يتألم^(١١٩)
وأظهر أسباب الغنى بين رفقتي
لتخفاهم حالي، وإني لمعدم
وبيني وبين الله أشكو فاقتي
حقيقا، فإن الله بالحال أعلم^(١٢٠)

.....
(١١٨) داناہم: اقترب منهم. قرأت هذا البيت الأول منسوبا إلى القاضي الجرجاني، صاحب كتاب (الوساطة).

(١١٩) الكشح: الخصر، وأراد به البطن.

(١٢٠) الزفاقة: العوز والفقر.

الزنادين

عَمَّوْا تَعَفَّ نَسَاؤُكُمْ فِي الْمَحْرَمِ
وَتَجَنَّبُوا مَا لَا يَلِيْقُ بِمُسْلِمٍ^(١٢١)
إِنَّ الزَّنَادِيْنَ، فَإِنْ أَقْرَضْتَهُ
كَانَ الْوَفَا مِنْ أَهْلِ بَيْتِكَ فَاعْلَمْ
مَنْ يَزِنُ يُزَنَ بِهِ، وَلَوْ بِجِدَارِهِ
إِنْ كُنْتَ، يَا هَذَا، لَبِيئاً فَافْهَمْ^(١٢٢)

شراب الأنس

بِمَوْقِفِ ذُلِّي دُونَ عَزَّتِكَ الْعَظْمَى
بِمَخْفِي سِرِّ لا أُحِيطُ بِهِ عِلْمَا
بِعَهْدِ قَدِيمٍ مِنْ (أَلَسْتُ بِرِيْكُمْ؟)
بِمَنْ كَانَ مَجْهولاً فَعُرِّفَ بِالْأَسْمَا^(١٢٣)
أَذَقْنَا شَرَابَ الْأَنْسِ، يَا مَنْ إِذَا سَقَى
نَجِيّاً شَرَاباً لا يَضَامُ وَلا يَظْمَا^(١٢٤)

(١٢١) المحرم (بفتح فسكون ففتح): الحرام.

(١٢٢) اللبيب: ذو اللب، أو العاقل.

(١٢٣) (ألسنت بريككم؟): هذا سؤال وجهه الله سبحانه للبشر يوم كانوا في عالم الذر، فقالوا: (بلى) أو هكذا جاء في الآية /١٧٢/ من سورة الأعراف.

(١٢٤) النجى (بفتح فجر فياء مشددة): هو من يناجي الله سبحانه وتعالى. أغلب ظني أن هذه الأبيات لشاعر صوفي. فهي لا تخفى على من عرف مذهب الصوفية. وقد أثبتتها هنا لأن لها نكهة خاصة.

حرف النون

غزة

وإني لمشتاقٌ إلى أرضِ غَزَةٍ
وإنْ خانتني بعدَ التفرُّقِ كتمانِي
سقى اللهُ أرضاً لو ظفرتُ بتربِها
كحلتُ به من شدةِ الشوقِ أجفاني

غاية العلم الأخلاق

إذا لم يزدْ علمُ الفتى قلبه هدىً
وسيرتهُ عدلاً وأخلاقه حسناً
فبشَّره أن الله أولاهُ نعمةً
يساءُ بها، مثل الذي يعبد الوثناً^(١٢٥)

نحن عيب الزمان

نعيبُ زماننا والعيبُ فينا
وما لزماننا عيبٌ سوانا
ونهجو ذا الزمانَ بغيرِ ذنبٍ
ولو نطق الزمانُ لنا هجانا
وليس الذئبُ يأكلُ لحم ذئبٍ
ويأكل بعضنا بعضاً عياناً^(١٢٦)

(١٢٥) الوثن هو الصنم. وقد أجبر الشاعر على تسكين الناء ليستقيم الوزن الشعري.

القناعة كرامة

قنعتُ بالقوتِ من زماني
وصننتُ نفسي عن الهوانِ
خوفاً من الناس أن يقولوا
فضلُ فلانٍ علي فلانٍ
من كنتُ عن ماله غنياً
فلا أبالي إذا جفاني

سوء الظن من الذكاء

لا يكن ظنُّك إلا سيئاً
ما رمى الإنسان في مهلكةٍ
إن سوءَ الظنِّ من أقوى الفِطَنِ (١٢٧)
غيرُ حُسنِ الظنِّ والقولُ الحسنُ

(١٢٦) عياناً: أي علناً.

(١٢٧) هذا هو مبدأ الشك الفلسفي.

أخلاق الإمام

ولو تَازَعُنِي كَفِّي إِلَى خُلُقٍ
يُزْرِي لَقَلْتُ لَهَا: أَلْقِيهِ أَوْ بَيْنِي
خِيمي كَرِيمٌ، وَنَفْسِي لَا بُحْدَثِي
أَنْ الْإِلَهَ بَلَا رِزْقٍ يُخْلِينِي (١٢٨)
بَلْ مَا اشْتَرَيْتَ بِمَالِي قَطُّ مُحَمَّدَةً
إِلَّا تَيَقَّنْتَ أَنِّي غَيْرُ مَغْبُونٍ (١٢٩)
وَلَا دُعَيْتُ إِلَى مَجْدٍ وَمَكْرُمَةٍ
إِلَّا أَجَبْتُ: أَلَا مَنْ يَنَادِينِي (١٣٠)

الهموم

سَهَرْتُ أَعْيُنٌ، وَنَامَتْ عَيْوُنُ
فِي أُمُورٍ تَكُونُ أَوْ لَا تَكُونُ
فَادِرًا الْهَمُّ مَا اسْتَطَعْتَ عَنِ النَّفْسِ
فَجَمَلَانُكَ الْهَمُومَ جَنُونُ
إِنْ رَبًّا كَفَّاكَ بِالْأَمْسِ مَا كَا
نَ سَيَكْفِيكَ فِي غَدٍ مَا يَكُونُ

(١٢٨) خيمي: أصلي أو طبعي.

(١٢٩) محمودة: عمل يجلب الحمد. - مغبون: خاسر، أو تعرض للغش.

(١٣٠) مكرومة: عمل كريم أو يؤسس الكرامة.

صالح الأعمال سفن

إن لله عباداً فطنوا
تركوا الدنيا وخافوا الفتناً
نظروا فيها، فلمما علموا
أنها ليست لحيّ وطننا
جعلوها لُجَّةً واتخذوا
صالح الأعمال فيها سفناً (١٣١)

للناس ألسن

إذا رمت أن تحيا سليماً من الأذى
ودينك موفورٌ وعرضك صيّنٌ
فلا ينطقن منك اللسانُ بعورةٍ
فكلك عوراتٌ وللناس ألسنٌ (١٣٢)
وعاشراً بإحسانٍ، وسامحٌ من اعتدى
ودافعٌ، ولكن بالتّي هي أحسنٌ

(١٣١) اللجة (بضم اللام): معظم الماء. وكتى بها الشاعر عن البحر.

(١٣٢) العورة: السوءة أو المثلبة.

الطمع هوان

أمتُ مطامعي فأرحتُ نفسي
فإن النفسَ ما طمعتُ تهون^(١٣٣)
وأحييتُ القنوعَ، وكان ميتاً
ففي إحيائه عرضُ مصون^(١٣٤)
إذا طمعٌ يحلُّ بقلبٍ عبدٍ
علتهُ مهانةٌ وعلاه هون^(١٣٥)

موت أحبتي

سأصبر للحمام وقد أتاني
وإلا فهو آتٍ بعد حين^(١٣٦)
وإن أسلم يمتُّ قبلي حبيبٌ
وموتُ أحبتي قبلي يسوني^(١٣٧)

(١٣٣) تهون: تصير بغير قيمة.

(١٣٤) مصون: محفوظ. - القنوع: القناعة.

(١٣٥) المهانة: الحقارة. - الهون: الهوان، وهو عدم القيمة، أو نقيض العزة.

(١٣٦) الحمام (بكسر الحاء): الموت.

(١٣٧) يسوني: أي يسوؤني، أو يزعجني كثيراً. وقد حذف الهمزة ليستقيم الوزن الشعري. إن الإمام الشافعي الذي يقاسي وحشة الاغتراب في دنيا معدنية شرسة، هو على أتم استعداد ليكابد لواعج الحزن والأسى حين يموت واحد من أحبائه، ويتمنى أن يموت قبلهم لكي لا يتجرع الحسرة والمرارة. وفي هذا منتهى الخلق الكريم.

حرف الهاء

كلب في الفرات

أعرض عن الجاهل السفيه
فكل ما قال فهو فيه
ما ضرَّ بحرَ الفرات يوماً
إن خاض بعض الكلاب فيه

شفاعة الصالحين

أحبُّ الصالحين، ولست منهم
لعلِّي أن أنال بهم شفاعة
وأكره من تجارته المعاصي
ولو كتأ سواءً في البضاعة

العلم

العلم من فضله، لمن خدمه
أن يجعل الناس كلهم خدماً
فمن حوى العلم ثم أودعه
بجهله غير أهله ظلمه

الصمت والكلام

لا خيرَ في حشو الكلام
إذا اهتديت إلى عيونِه
والصمتُ أجملُ بالفتى
من منطقٍ في غير حينِه
وعلى الفتى لطباعه
سمةٌ تلوح على جبينِه^(١٣٨)

التناسب

وأنزني طولُ النوى دارَ غربةٍ
إذا شئتُ لاقيتُ امرءاً لا أشاكلُه^(١٣٩)
أحامقُه حتى يُقالَ: سجيةٌ
ولو كان ذا عقلٍ لكنتُ أعاقلُه^(١٤٠)

الحسود

وداويتُ كلَّ الناسِ، لكنَّ حاسدي
مداراته عَزَّتْ وعَزَّ فعائلُها
وكيف يداري المرءُ حاسدَ نعمةٍ
إذا كان لا يرضيه إلا زوالُها

(١٣٨) السمة: الأمانة أو العلامة.

(١٣٩) النوى: البعاد. والمقصود هو السفر. - أشاكله: أشابهه.

(١٤٠) أحامقه: أحاطبه بحماقة كما يخاطبني. - سجية: طبيعة، أو صفة من صفات الطبع. -

أعاقله: أحدثه بالعقل والحكمة كما يحدثني.

حرف الياء

عين الرضا

وعينُ الرضا عن كل عيبٍ كليلَةٌ
ولكنَّ عينَ السُّخْطِ تُبْدي المساويا
ولستُ أرى للمرءِ ما لا يرى ليا^(١٤٢)
فإن تدنُّ مني، تدنُّ منك مودتي
وإن تتأ عني، تلقني عنك نائيا
كلانا غنيٌّ عن أخيه حياتهُ
ونحن إذا متنا أشدُّ تغانيا^(١٤٣)

(١٤١) كليلة: ضعيفة. - المساوي: المساوية وحذف الهمزة لضرورة القافية.

(١٤٢) هياب: خائف.

(١٤٣) التغاني: استغناء كل طرف عن الآخر.

خاتمة

لقد اصطفيت هذه المختارات، كما أسلفت في المقدمة، من عدة مصادر حديثة لديوان الشافعي. وهي في تقديري أفضل ما وجدت في تلك المصادر من شعر للإمام الشاعر، أو مما هو منسوب إليه بطريق التزوير الذي يستهوي بعض الناس فيدفعهم إلى القيام به دون رادع أو ضمير. ولعل أهم ما في الأمر أن الرجل قد تبدى وهو يتركز حول مجموعة صغيرة من الموضوعات التجريبية والمثالية الثابتة التي أعطاها جل جهده، أو جعل منها محوراً لنتاجه الشعري كله.

وقد يتيسر للمرء أن يلخص تلك الموضوعات الكبرى على النحو التالي:

أولاً: غربة الشاعر عن الناس وكذلك عن الزمن الذي عاش فيه، ثم عن سلطات عصره وملوكه الذين يكرههم كما يكره المحرّمات. فمن المؤكد أن كل رجل عظيم هو على خلاف دائم مع زمنه الذي يعيش فيه. ولكنني وجدت أن المتبني هو أبرز من يجسد هذه البرهة، أقصد برهة الانخراط في خلاف، أو في توتر مع العصر، أو البنية الكلية للمجتمع.

ثانياً: مناقب السمات الخلقية التي يتبناها الشاعر الإمام ويدعو إليها بحرارة وصدق، ولا سيما الإيثار ومساعدة المحتاج، ثم عزة النفس وإكرامها بالشرف، وعدم السماح لأحد بأن يرى له فضلاً عليها، لأن من شأن ذلك أن يشينها أو يهينها.

ثالثاً: الصلة بالله، أو الثقة بأنه الحارس الأمين الذي سوف يكفيك هموم المستقبل مثلما كفاك هموم الماضي. وربما جاز الزعم بأن ثمة علاقة بين هذه التقوى وبين تلك الأخلاق النبيلة الآنف الذكر. ويبدو أن ثقته بالله قد كان من شأنها أن خفّضت من حدة شعوره بالضيق والاعتراب، أو لعلها أن تكون قد أسهمت في جعله يتحمل غربته وفقره وسوء أحواله. والأهم من ذلك أن هذه

الصلة التي توجهه إلى ما يتجاوز الكون تملك من الطاقة ما يكفي لكي يلحم العلو بالتجربة في كل قيمة من القيم التي يتبناها الشاعر.

رابعاً: الالتزام الدائم بمبدأ القناعة الذي هو مبدأ الزهد المعتدل، والذي قد يفضي بصاحبه إلى هداة البال، أو إلى التخفيض من قلق النفس وتوترها الشديد. ولكن ما هو ناصع تمام النصوص في هذه الأشعار أن الرجل يعمد إلى تبني مبدأ القناعة ابتغاء صيانة شخصيته عما يدنسها، أو لكي يحفظ كرامته وينأى بها عن ذل السؤال والاستجداء.

خامساً: حب المعرفة وحث الناس عليها أو على السعي من أجل حيازتها والتقدم فيها حتى نهاية الشوط، وذلك لأنها تؤدي إلى ترسيخ الماهية الإنسانية في الكائن البشري. وربما لاحظ قارئ الديوان أن الشاعر يرى الإنسان بغير معرفة كائناتاً شديد القرب من الحيوان، أو هو منقوص الهوية ومثلوب الشخصية والكرامة.

سادساً: السفر وفوائده ونتائجه الإيجابية وقدرته على تجديد روح الإنسان وتخليصها من الرهل، أو من التأسن في مستتقع السكون الراكد البليد، حتى لكأن السفر هو القوة التي تضمن نبض الفؤاد.

وربما فات الإمام الطيب النبيل أن الاغتراب ضريبة العبقرية، بل ضربيتها الحتمية الباهظة التي لا محيد عن تأديتها بتاتاً، وأن ذوي القامات الباذخة لا أصدقاء لهم إلا عرضاً، أو على ندرة فقط، وذلك لأنهم بغير أنداد يوازنهم في الارتفاع أو في الشموخ، إذ لا صداقة على الأصالة إلا بين أنداد وحسب. وحتى هذا القول بصداقة الأنداد لا يصح إلا إذا كانت الصداقة نفسها واقعة ممكنة في عالم محكوم بالأنانيات والنزعات الرامية إلى الحيازة والمتعة والتسلط والنفوذ، بل قل في عالم يستوطنه نسق من البؤس والشر والعذاب الدائم المقيم، ولا سيما في المدن الكبيرة، حيث الغلبة للمظاهر على الجواهر، أو

((حيث تتكسد الثروة ويتعفن البشر))، كما يقول غولد سمث، الشاعر الإيرلندي، في قصيدة له عنوانها (القرية المهجورة).

ولقد شكنا امرؤ القيس في الزمن الجاهلي، أو قبل الشافعي بكثير، من سرعة تبدل الأصدقاء، بل حتى من خيانتهم له باستمرار. وهذا مما يؤكد بكل جزم أن العزلة هي قدر العبقري المحتوم. فهذا هو ذا يقول في الرائية الكبرى، التي هي قصيدة اغتراب سداة ولحمة، والتي أحسبها واحدة من عيون القصائد العظمى في تاريخ الشعر البشري بأسره، والتي أسهمت أيما إسهام في تأسيس الشعر العربي منذ زمنها وحتى زمننا الراهن:

إذا قُلْتُ هذا صاحبٌ قد رَضِيْتُهُ
وقرت به العينان بُدِّلْتُ أَخْرًا
كذلك جدي، ما أُصاحبُ صاحباً
من الناس إلا خانني وتغيّراً

أما المتبني فقد راح يتمنى المنية حين بلغ به الاغتراب حداً لا يطاق. وإليك الشرط الذي دفع أبا الطيب إلى ذلك التمني:

تمنيتُها لما تمنيتُ أن أرى
صديقاً، فأعيا، أو عدواً مداجياً

ولعل أنكى ما في الأمر أن الرجل لم يصادف عدواً يجامل أو يداهن. حتى هذا العزاء التافه لا وجود له في عالم أبي الطيب، فالى أي مدى كان ذلك الشاعر مغترباً؟

إنه، إذن، يعيش محاطاً بالفراغ من جميع الجهات حتى لكأنه في قفر موحش لا بشر فيه ولا حياة. فراغ وحسب، هذا هو كل شيء، وهذا هو أقصى مدى يستطيع الاغتراب أن يصل إليه.

بيد أن منظومة القيم النبيلة التي يتبناها الشاعر الإمام، والتي تتبع كلها من القيمة المركزية الجلى التي أدعوها الطيبة، هي عناصر جوهرية في صميم النسق الأخلاقي المثالي للجنس البشري كله، وفي كل زمان ومكان. فهو حين يدعو إلى القناعة إنما يسعى إلى شكك ذلك الاندفاع الهمجي نحو الحياة التي هي أصل كبير من أصول الشر، بل من أصول المذبحة العالمية المستمرة في دنيا لا خلاص لها من انشطارها السرمدى الكئيب. ولا ريب في أن أخلاق النبل والنظافة التي يحاول الشاعر أن يرسخها في هذه الحفنة الصغيرة من الأشعار، هي محاولة جادة للعلو، أو لتجاوز هذا الانشطار المرير الذي لا يتجاوزه إلا أصحاب النفوس المطهمة الهيفاء. وربما أقنعتك هذه القصائد الصغيرة الحجم، كما أقنعتني، بأن الشافعي روح طاهرة بريئة ونادرة النظير في تاريخ الثقافة العربية بأسرها.

الفهرس

المقدمة ٥

الديوان ٤١

خاتمة ٩٣